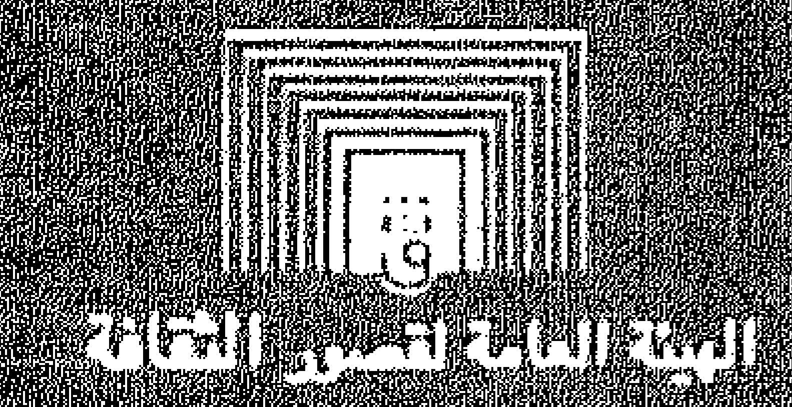
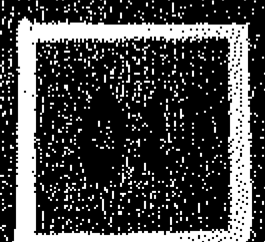
الخطاب الأدبى والطفولة

د. أحمد زلط

مكتبة الشباب





إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

مكتبة الشباب

٥٤



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

الخطاب الأدبى والطفولة

تأليف
د. أحمد زلط

مارس ١٩٩٧

مكتبة الشباب

شهرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالي
١٦ شارع أمين سامي
القصر العيني – القاهرة
رقم بريدي ١١٥٦١

الفصل الأول
أدب الطفولة فى التراث العربى

تمهيد :

الطفل ثروة الأمة وأساس مستقبلها، والنصوص الباقية عن العرب تدل على اهتمام العرب بالطفولة ومدى عناية أسلافنا بالطفل فالاطفال هم (قرة أعين) كما ورد بسورتي الفرقان والقصص من القرآن الكريم، قال تعالى :(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) الأية ٤٧ سورة الفرقان (وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك) الأية ٩ سورة القصص. الأطفال هم زينة الحياة الدنيا وعز الأهل، قال تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) الآية الكريمة ٦٤ سورة الكهف.

وللطفل مكانة هامة فى حياة رسول الله (صلعم) وقد خص الطفولة بالرعاية والاهتمام،

ففى السيرة النبوية نجد مظاهر حبة للطفولة والتوفر على حسن تهذيبها، والرحمة بها، وكان صلى الله عليه وسلم يسمى الولد ريحان الله، وكان الحسن والحسين وهما طفلا ابنته ريحانتيه من الدنيا، وولد الأبناء عنده بمنزلة الولد، وفى الحديث : «ريح الولد من ريح الجنة». وهو ريحان الله وريحانة من رياحين الجنة. وقد أقسم الله تعالى بالولد فى سورة البلد، وذكر الطفل فى سورة النور وسورة الحج.

ومن على الناس أن أمدهم بالاطفال فى أربع سور مباركات هن : الاسراء، والمؤمنون، ونوح والمدثر. وفى اللغة ومعاجمها، ما يشير إلى مفهوم الطفل ومكانته ومنزلته فى كتب اللغة وآدابها، إذ اهتم علماء اللغة بالطفل ودونوا ما يتعلق به من كلمات وألفاظ وأسماء وصفات وأصوات، وقد استتبع ذلك أن حظى الطفل فى تاريخ الأدب العربى بنتاج ادبى منظوم ومنثور يجمع بين التنوع والغزارة، وقد استهدف العربى القديم – وهو يكتب للطفل – مراحل نموه العقلى واللغوى واتسم النتاج الأدبى الموجه للطفل بالرعاية والحب والعطف وتنمية الذوق والخيال.

لقد تناولت أغلب المؤلفات التراثية – اللغوية والأدبية والعامة – بين ثناياها، أدب الطفل ومكانته وتربيته وتهذيبه، من زمن مرحلة المهد الى بداية مرحلة الفتوة والشباب. وصورة أدب الطفل فى التراث العربى لم تهملها الحياة العقلية العربية كما يتصور بعض الباحثين، فهى ليست غائمة أو ساذجة، وإنما حفلت باهتمام من الكتاب والعلماء والأدباء يعدل اهتمام الآباء والأمهات ورجال الدين، غير أن صورة أدب الطفل فى تراثنا فى مجملها صور مركبة تتوزع بين الأدبين الرسمى والشعبى، فبعض أشكال التعبير الموجهة للطفل من حكايات الأدب الشعبى توارثتها الأمة جيلا بعد جيل علي ألسنة الجدات والأمهات والمربيات والرواة، شأنها شأن الأغانى الشعبية

للطفل فى مناسباته المختلفة.

لقد عرف الأدب الرسمى نظام المقطوعات الشعرية فى قالب الرجز قبل القصيدة المطولة، وقد دون الأدب الرسمى العديد من صفحات كتبه عبر تاريخ الأدب العربى، أغانى الترقيص، والمقطوعات المجزوءة، والأشعار البسيطة وغيرها من الأدب المكتوب. أما الذى ينقصنا فهو رصده وجمعه من بين ثنايا كتب التراث تحت جنس أدبى مستقل. أما استمرار وقوفنا عند منطقة الحذر من وجود مثل هذا اللون الأدبى، وبالتالى إهمالنا لتأصيله، فهو من أسباب تأخرنا فى مواكبة تطور العلوم الانسانية المعاصرة، والأدب بالقطع يلازم الانسان طوال رحلته فى الحياة فى علاقة ترابطية.

ونخلص من هذا المدخل الى حقيقة هامة مؤداها أن أدب الطفل فى التراث العربى، له جذوره، ونتاجه النثرى والشعرى فى الادبين الرسمى والشعبى ، وإن لم يحظ طوال القرون الماضية بمهمة بحث جوانبه وتوجهاته وتثبيت دعائمه فوق خارطة الأدب بالدرس والتأصيل. لقد اهتم الادب العربى اهتماما كبيرا بالطفل، وكان للأدب الموجه للطفل دوره الذى لا يقل أهمية عن الأدب المكتوب عنه[١]. اذ كان للأدب الموجه للطفولة والناشئة فى جميع عصور الأدب العربى دوره الحيوى فى تكوين الشعور الوجدانى للطفل، فإن تأصيل العلاقة المميزة بين الأدب والطفل تقوم على مدى قدرة الفنون الأدبية فى

التـأثيـر فى الطفـولة كـوسـيلة وغـاية. لذلك انطلقت أدبيـات الطـفل المتناثرة فى أمـهات كتب التراث لتحقق المفاهيم الوظيفية لهذا اللون الأدبى. الحـقـائق التى تطالعنا فى الأدب الـعـربى المدون هى وجـود نتـاج أدبى مـتنوع الاشكال والمضـامين بين ثنايا كتب اللغـة والأدب والأخبار وغيرها، ففى النثر توجد القصص والحكايات وأحـاديث السمار والنوادر والأمثال والألغاز والخرافات والأساطير، وفى مجال الأشعار وجدت أشعار الترقيص، والمنظومات التعليمـية والتهذيبية، والمقطوعات والأراجيـز الخـفـيـفـة السـهلة، وهذه الأشكال والفنون التعبيرية تستهدف فى بعض توجهاتها الأطفال والناشئة. وقد كشف المدخل السابق عن مسلمة هامة فى تاريخنا الأدبى مؤداها أن أدب الطفولة كوجـه مسـتحدث من وجوه الأدب العربى لم يحظ بتأصيل تحت نوع مـا من الأنواع الأدبيـة، لأن الأجناس الأدبيـة كـانت تجئ عرضـا فى كتب اللغة والأدب، وقد عنى الرواد والعلماء عناية فـائقة بتسـجيل وتدوين الأدب الرسـمى - ابداعه ونقـده - بينمـا تناثرت أدبيات الطفل فى بطون أمـهات الكتب دون أن يفـرد لهـا المصنفـون والنقاد، الأجناس أو الأحكام الخاصه بها. وعدم التفات هؤلاء العلماء إلى أدب الطفل فى نشـأته وتطوره وفى أشكاله ومضـامينه، جعلنا نطلق على هذا اللون الأدبى - رغم تدوين أغلبـه - نفس المفـاهيم والأحكام القـاصرة التى يطلقهـا البعض على الأدب الشعبى. وليس

معنى ذلك أننا نقلل من الأهمية البالغة للادب الشعبى فى حياة الأمة، فلا يختلف أحد على أهمية وسريان تأثيرات الأدب الشعبى فى أدب الطفولة، وعلى الأخص فى الفنون النثرية بنماذجها المتنوعة مثل الحكايات القصصية والشعبية والخرافية والاساطير وقصص الحيوان. وأزعم أن الجانب الشعرى فى أدبيات الطفولة يخرج عن دائرة مفاهيم وخصائص الأدب الشعبى ، وأعنى بالشعر هنا، شعر الاطفال الذى يندرج تحت أدبنا الرسمى المكتوب، على نحو ما يوضحه الكتاب. أما الأغانى الشعبية الموروثة للاطفال وأغانى ألعابهم ومناسباتهم وعاداتهم فهى من الأدب الشعبى ، ويكاد يجزم المؤلف بأن عزوف الرواد والنقاد من علماء اللغة العربية عن تحديد المفاهيم أو الخصائص المميزة لأدب الطفل، أو وصفه على الأقل كنوع أدبى له نتاجه الذى يخاطب الناشئة - يجئ هذا العزوف غير المقصود - نتيجة نظرة المجتمع العربى القديم تجاه الصغير، فالصغير منذ القدم: الصغير فى كل شئ حتى يشب عن الطوق ويكبر، هذا من ناحية، والعبقرية العربية التى شيدت دعائم الأدب الرسمى - بفنونه ومضامينه وخصائصه وقواعده - غير عاجزة بأى حال من الأحوال عن تقعيد القواعد، ومن ثم التأصيل النقدى لهذا اللون الأدبى الذى يشكل وجدان أكثر من أربعين بالمائة من ثروة الأمة البشرية. ومهما يكن من شئ فإن نظرة رجال النقد وعلماء اللغة والأدب للأدب

الشعبى كانت تسير فيما أعتقد فى خط مواز لنظرتهم لأدب الطفل، لأن هؤلاء الرواة والنقاد ورجال التدوين كانوا يرون أن النصوص[٢] النثرية والشعرية الموجهة للاطفال والناشئة يقوم بها فى الغالب الأمهات والجوارى والمربيات أو المؤدبون فى بيوت الخلفاء والأمراء عن طريق التلقين والاستماع ومن ثم رأوها من الأدب الشعبى، ويمكن بالتالى أن تنتقل هذه النصوص من جيل إلى جيل. وقد دفع هذا التصور الذى أشرنا اليه أحد الباحثين العرب إلى القول بأن ترقيص الأطفال الذى يعبر عن هذه الصلة ويصورها شعرا إنما هو أدب شعبى أصيل[٣].

الفنون النثرية والطفل :

وفى ضوء ما تقدم يمكن القول إن الأدب العربى – عبر عصوره المتتابعة – قد تنبه فى اطار رعايته للطفولة لنقطة البداية فى التكوين الأدبى للطفل، وكانت قاعدة البداية الأولى التى انطلق منها تتشكل إرهاصاتها وأصولها التراثية عند محور : الفنون النثرية الموجهة للطفل. وقد اضطلع النثر بفنونه المتنوعة بمهمة التشكيل الوجدانى والأخلاقى للناشئين عن طريق تلقينهم الحكايات القصصية بأنواعها والحكم والأمثال والمأثورات القولية والنوادر والألغاز وغيرها باعتبارها من الوسائل الفنية النثرية الموجهة للاطفال بهدف تربوى وأخلاقى وجمالى ، وقد ظلت هذه الوسائل الفنية الأدبية تحمل فى

مضامينها الأهداف الوظيفية لأدب الطفل من زمن العصر الجاهلى الى العصر الحاضر، وإن كنا لا نستطيع تحديد تاريخ معين تم خلاله تسجيل أو تدوين كتب تجمع هذا اللون الأدبى أو ما يشير إلى نشأة النثر الأدبى الموجه أساسا للطفل فى العصر الجاهلى أو قبل ذلك، لصعوبة ذلك، ومن ناحية أخرى فإن عملية الانتقال الثقافى عملية تغيير متطورة يتم من خلالها نقل الثقافة من جيل إلى آخر، وهو ما يؤكد عليه علماء الأنثروبولوجيا للإشارة الى التراث غير المكتوب الذى تعبر عنه القصص الشعبية والأغانى والحكم والأمثال الشعبية(٤).

ومما لاشك فيه أن كتب التراث العربى حملت إلينا بين ثناياها ماتم تدوينه من فنون نثرية متعلقة بأدب الطفل ، وكان لتلك الفنون الأدبية وجودها فى الجماعة وتأثيرها فى الأمة، كما أشار القرآن الكريم إلى أساطير الأولين (٥) قال تعالى : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) الآية ٥ سورة الفرقان، وحكايات الأطفال بأنواعها لها جذورها فى الأدب العربى الموروث «والقصص الروائي الشفوى للاطفال يلعب دوره فى مخاطبة حواس الطفل وحفز مشاعره وخياله، ونحن لا نستبعد ما يقال من أن الوصيفات والمربيات كن يقصصن على الأطفال قصصا مبسطا . . وهذا القص يحتمل أن يكون هو نفسه ما ألفناه من حكايات الجدات

والتى لا تزال متداولة فى بعض بيئاتنا، وحكايات الجن والشياطين جوهرية فى تراث حكايات الجدات القديمة وبداية لخط قصصى بلغ قمته فى القرنين الرابع والخامس الهجريين، ومن أبرز أمثلته رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى، كما كانت قصص الحيوان التى بدأت شهرتها مع كليلة ودمنة التى ترجمها ابن المقفع وما صاحبها وتبعها من الملاحم الشعبية وقصص ألف ليلة وليلة، وحى بنى يقظان وغيرها - مصدرا هاما للأدب القصصى للطفل»(٦)

وقد عرفت الأمة العربية الأدب القصصى - منذ حققت وجودها- بالكلمة والخبر، وتطورت الحكايات القصصية كشكل من أشكال التعبير النثرى تبعا لتطور الحياة العقلية والاجتماعية للأمة العربية.

وليس صحيحا ما استقر فى أذهان البعض من أن العقلية العربية تنزع بفطرتها الى التجريد وتنأى بجانبها عن التجسيم، فبرز مصطلح الحكاية فى الأدب القصصى وتزحزح عن مجرد الإخبار بالواقع الى الايهام بحدث قديم مرت الدهور عليه أو واقعة فى مكان بعيد. ولا بأس من التوسل بالخيال لبلوغ التأثير المنشود. كما برزت أيضا كلمة خرافة لتدل على الوقائع والأحداث غير المعقولة ثم أصبحت مرادفة لطائفة من حكايات الخوارق، ويستعمل المثل أيضا للدلالة على نوع متميز من أنواع الحكايات والقصص هوالذى يدور حول البهائم والطير والذى تتخذ فيه الكائنات صفات عاقلة

مفكرة ومدبرة(٧). والرؤية التى أشار اليها د. عبد الحميد يونس فى الفقرة السابقة تجمع فى طياتها التأكيد على وجود الفنون النثرية فى الأدب العربى منذ القدم، وقد تطورت هذه الأشكال التعبيرية برغم خضوعها للتغيير بالحذف والاضافة، إلا أن العنصر الأصلى فى الحكاية يبقى واحدا وتتفرع عنه العناصر البنائية عند إعادة القص أو الرواية.

ومن نافلة القول التأكيد على مدى شغف الأطفال بالحكايات بأنواعها فقد توارث أطفال الجاهلية حكاياتهم الخاصة بهم، وانتقلت إليهم من جيل إلى جيل، غير أن الجانب الرسمى فى المجتمع لم يلق بالا إلى هذا اللون من الفن القصصى ولم يقدره الكبار قدره، ولم يلتفت إليه الرواة، فظل محصوراً بين جدران الخيام والمنازل والدور لا يخرج إلى المجتمع ليكون تعبيراً عن مرحلة التفكير والعواطف والخيال والمعتقدات للإنسان بل تناقلته شفاه النساء والأطفال فى حدوده الضيقة المحدودة (٨). ونخلص مما تقدم إلى حقيقة مؤادها أن معظم الأنواع النثرية الموجهة للطفل فى الأدب العربى القديم، دارت فى فلك الأدب الشعبى، فاتسع تأثيرها بالتالى لتشمل سائر طوائف المجتمع ومستوياته وليس الأطفال وحدهم أو النساء فى حدودهن الضيقة المحدودة، وليس لطائفة عمرية بذاتها Age-Set وقد ظلت مادة الحكايات – على تنوعها وتطورها بعيدة عن الأدب الرسمى

المدون لعدة قرون، فى الوقت الذى كانت تتناقل هذه المادة القصصية الجدات والأمهات والمربيات والمؤدبون والمعلمون، كما خضعت الأعمال التى قدر لها التدوين إلى التعديل عن الأصل، والتغيير غير مرة من جيل إلى جيل.

إن عقل الطفل وإدراكه بحاجة إلى مثل هذه الأجناس الأدبية على تنوع مادتها وثراء خيالها وسحر تأثيرها واختلاف أساليب تشكيلها الفنى «ومثل هذه الحكايات المتنوعة فى الأدب القصصى تغذى جوانب تفكير الأطفال وتقوى نواحى الخيال عندهم ووسيلة من وسائل التعليم والتثقيف والمشاركة فى الخبرة، وطريقا لتكوين العواطف السليمة، والوطنية الصادقة للأطفال، وأسلوبا يقفون به على حقيقة العقيدة ويكشفون مواطن الصواب والخطأ فى المجتمع، ويتعرفون طرق الخير والشر فى الحياة»[٩].

والطفل يشعر بالمتعة وهو يستمتع بالحكاية التى تروى له، هذا جانب، كما يستفيد من مغزاها والأثر الوجدانى الذى تتركه فى مخيلته من جانب آخر. ومن هنا راح الرواة يقصون على الناشئين حكاياتهم القصصية، والتى ازدادت تنوعا وخصوصية بتطور الحياة العقلية والاجتماعية للأمة، وفى ذلك يقول د. فؤاد حسنين «يعد القصص من أهم الأجناس الأدبية التى تعبر عن روح الأمة وعقليتها وطبيعتها «فالأمة منحت حظا موفورا من الخيال والقدرة على صياغة

المادة المحيطة بها قصصا جميلا، كما أنها تمتاز - كغيرها من عقليات الشعوب السامية - بإعادة تأليف القصص القديمة التى تتوارثها من أقدم العصور واظهارها فى ثوب يكاد يكون جديداً»(١٠).

وتعد أيام العرب فى الجاهلية مصدرا خصبا صافيا من ينابيع الأدب ونوعا طريفاً من أنواع القصص بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث «وما روى فى أثنائها من نثر وشعر، وما تدس خلالها من مأثور الحكم وبارع الحيل، ومصطفى القول ورائع الكلام». والفقرة الآنفة تتضمن الاشارة إلى أصل قديم من أصول التراث العربى يتضمن عدة أشكال من التعبير الأدبى - نثره وشعره - فأيام العرب حملت البذور الأولى فى تربة الأدب القصصى عند العرب . وقد تأثر أدباء العصر الجاهلى بالبدايات الأولى لمعالم هذا اللون النثرى القصصى، فالأسلوب القصصى (أسلوب الحكاية) اتبعه الشعراء فى معرض الحديث عن ذكرياتهم لدرجة الاقتراب من السرد بما يشير إلى عفوية الشعراء وبساطتهم فى التعبير «.. وفى اشعار الهذليين يتضح الأسلوب القصصى فى الشعر خاصة عند الشاعر أبو ذؤيب الهذلى، وقد برع الشعراء الهذليون فى تمثل قصص الحيوان وأصبح هذا الأسلوب شبه تقليد فنى عندهم»(١١).

والمتأمل فى تاريخنا الأدبى القديم يجد فى شيء من اليسر الطبيعة التعددية فى الأدب القصصى المدون منه، والشعبى. والطفل وهو يتلقى هذا النتاج المتعدد أو شيئا منه فى مراحل طفولته، كانت

النماذج القصصية المقدمة له عن طريق الأمهات والجدات والمربيات أو الرواة القصاصون أو المؤدبون - يراعى فى تقديمها عقليته وإدراكه، وقد طرأ على هذه الطبيعة التعددية فى الأدب القصصى التجديد فى الأطر والموضوعات، وبذلك استقرت فى تاريخ الأدب العربى عدة أنواع تندرج تحت الأدب القصصى العربى: أيام العرب فى الجاهلية، الحكايات القصصية المتنوعة، الأمثال والحكم والوصايا، الأساطير، الألغاز والاحاجى.. وسنقف فيما يلى عند بعض هذه الأنواع القصصية وفقا لاستمرار فعاليتها وتأثيرها على الطفل، وهو ما ستوضحه الصفحات التالية:

أنواع الحكايات القصصية فى الأدب العربى:

لا جدال أن فن الشعر هو ديوان العرب وأبرز ميراثهم الإبداعى، ومع ذلك فإن التراث القصصى العربى من حكايات وأساطير يدفع الآراء القائلة بأن العرب أمة لا تملك الأساطير والحكايات القصصية الأصلية من وحى ابتكار العرب أنفسهم، وهذه الفرية التى يروج لها المستشرقون فى مؤلفاتهم هدفها التقليل من شأن العرب وتاريخهم الأدبى. ويرد أحد علماء الاستشراق على هؤلاء فى حيدة وانصاف فيذكر: «وصل العرب بفن الحكايات الخاص بهم إلى حد الاكتمال الفريد، ثم هناك قيمة العبر الخالدة من حيث أنهم خلقوا عن طريق فنهم فى الرواية صوراً جديدة كل الجدة سواء من خلال تلك الحكايات التى نشأت عندهم، أو عن طريق تلك التى أخذوها من

الشعوب الأخرى»[١٢].

يقول الراغب الأصفهانى فى كتابه «الذريعة فى آحكام الشريعة» فى مستهل الباب الخامس والعشرين (الطفل فى حالة صباه كالشمع تشكل بكل شكل يشكل به) وقد أحس العرب بضرورة اشباع احتياجات أطفالهم الوجدانية والعقلية فى مراحل نموهم، فوضعوا لهم التأليف القصصى، والحكايات الشعبية والحكايات الخرافية وغيرها من الحكايات التى تدور حول التسلية والاقناع والتعليم والتهذيب وإيجاد علاقات مميزة مع البيئة أو الطبيعة المحيطة بالطفل، وكذلك قصص الحيوان، والأخيرة تلعب دورها البارز فى تاريخ الأدب الموجه للأطفال، وهذا الاحساس العربى القديم يدلنا على معرفة العرب وعمق نظرتهم العقلية والوجدانية فى الذوق والخيال عند الأطفال بمروياتهم الأدبية التى تنمى مداركهم وفقا لانتقالهم من مراحل الحس الجزئى إلى التجريد الكلى كما يدلنا على ذلك نتائج علم النفس الارتقائى، فالطفل يولد معه الاستعداد الذاتى للاستجابة والاكتشاف ومن ثم يستوعب الشىء فى صفاته الشاملة لأن مشاعره وتصوراته تزداد مع مراحل نموه وتمده بطاقة خيالية أروع من أى تفاصيل جزئية. فى ضوء ذلك يمكن القول إن الطفل يستجيب مباشرة للشىء الآخر أو الشىء المجهول الذى يجد فيه انعكاسا لذاته، ولا غرو أن يكون عالم الحكاية الخصيب والمثير هو الأقرب إلى عالم الطفل، إذ الطفل صفحة بيضاء قابلة لما ينقش فوقها، وهو فى

حركة دائبة لا تهدأ إلا بالانتقال من حركة إلى حركة ومن خيال إلى خيال آخر فى ترقب واستجابة للاستمتاع بالمثير الخيالى والوجدانى فى الأدب القصصى بعامة وعالم الحكاية بخاصة.

وكان للبيئة الطبيعية العربية أثرها الحاسم فى تربية الخيال لدى المبدع العربى والمتلقى كذلك، فقد «عاش العرب فوق صحراء مبسوطة الرقعة مجلوة الآفاق وفيرة الوحش والطير، فى جو صحيح الهواء، وتحت سماء صافية الأديم ساطعة الكواكب ضاحية الشمس، سافرة البدر، جلت لحسه مناظر الوجود، وعوالم الشهود، فكان لخياله من ذلك مادة لا يغور ماؤها، ولا ينضب معينها، فهام بها فى كل واد وأفاض منها إلى كل مراد، وكان له من لغته وفصاحة لسانه أقوى ساعد. وأكبر معاضد»(١٣) ويقف أحمد ضيف من أثر الخيال فى تشكيل العقل والوجدان العربى موقفا تحليليا يرد به تهمة غلاة المستشرقين بضعف الخيال - وهو عنصر رئيسى فى الابداع - عند الأمم السامية، من ناحية، ويؤكد وجود مزية الاستكشاف وحب الاستطلاع من ناحية أخرى فيذكر: «لقد تصور العرب فى جاهليتهم آلهة متعددة ونصبوا لها الأصنام قبل الاسلام، وكانت لهم اساطير، ولكنها لم تظهر فى شعرهم ظهورها عند الأمم الأخرى، كما تخيلوا لشعرائهم نفوسا أخرى من الجن توحى إليهم عبقريتهم وعدوهم أصحابا لكبار الشعراء ورووا عنهم الشعر، أما إن كانت الأمم السامية ذات أفكار هادئة غير قلقة، راضية بصدق وصحة ما ترى،

فهذا صحيح فى جملته، لأنهم أقنع الأمم فى حب الاستطلاع» وفى ضوء التعليل السابق «كانت القصص والأساطير فى المكان الأول من الحياة الأدبية، وإنها كانت الفن المفضل عند الغالبية العظمى فى الجاهلية»[١٤].

فالحكايات القصصية الخرافية والأساطير مادة أدبية، كان لها وجودها فى تراثنا القديم، ويمكن أن تحتل مثل هذه الأنواع الأدبية مكانا فى أدب الطفل المعاصر إذا دقق الكتاب والمؤدبون والمعلمون فى اختيار النصوص التى تناسب أعمار ومدارك الأطفال، أو إعادة صياغة (معالجة) الحكايات الخرافية والأساطير لتحقق الوظائف التربوية والجمالية واللغوية فى مجال أدب الأطفال، وهذه المعالجة لن تفقد أصول الحكايات على ألسنة الحيوانات Fables أو الأسطورة Myth شيئا من مغزى أيهما أو روعة الخيال التصويرى فى سردهما بإعادة المعالجة، فالحكايات الخرافية أو الأسطورية على تنوعها قديمة[١٥] قدم الأدب العربى، وقد وجدت قصص الجان الخرافية وقصص الحيوان فى الحياة العربية منذ عصر ما قبل الاسلام، وقد تناثرت خيوط الحكايات القصصية وتعدد نسيجها على ألسنة الرواة مشافهة جيلا بعد جيل أو تم تدوينها فى بطون كتب اللغة والأدب والأخبار وأيام العرب، وكان الكتاب والمربون يهدفون من وراء قص الحكايات إلى عدة مقاصد منها الغاية الوعظية، وجلب السرور والمتعة لدى الأطفال وحفز خيالهم، والحكايات تستهدف فيما تستهدف الأدب

التهذيبى للطفل أيضا والأدب التعليمى فى إطاره النثرى من خلال الحكمة والمثل والقصص عن طريق الحكايات بأنواعها، لأن الخيال الفنى فى مضمون القصص والحكايات والأساطير تصنعه من خلال الشخصيات والأحداث ، والفكرة أو الأفكار - تصنعها - شخصيات غير بشرية تحمل صفات الإنسان وتعمل مثله، وهذه الشخصيات غالبا ما تكون فى نصوص الحكايات العربية القديمة التى وصلتنا من الحيوان أو النبات أو الجن.

ومن نافلة القول التأكيد على أن هذه الحكايات الخرافية احتلت مكانا هاما فى حياة الأسرة العربية، خاصة فى بيوت الخلفاء والأمراء فى أماكن التسلية واللهو، وامتدت آثار هذه الحكايات الموجهة لوجدان الطفل إلى العصور المتتابعة من أدبنا العربى القديم وحتى عصرنا الحاضر. إن موضوع الأدب الوعظى أو الأدب الحكيم، اشتمل فى أحد روافده: القصص العربى القديم فى فترات تاريخية سبقت ظهور الاسلام، وقد عاشت هذه القصص العربية الخرافية فى وجدان المجتمع العربى(١٦).

وقد كانت الحكايات القصصية، بخاصة حكايات الحيوان فى الأدب العربى القديم، إما شعبية تشرح ما سار بين العامة من أمثال وحكم ووصايا أو مقتبسات من عصور قديمة وتتصل بالعقائد والطقوس، أى ذات طابع دينى يتصل بالعقائد الدينية، باعتبار الدين يتسم بالفطرة الوجدانية والاقتناع العقلى، وقد حظيت المكتبة العربية

بمجموعة مؤلفات هامة فى هذا المجال[١٧].

مما سبق يتضح لنا وجود الأصول التراثية فى آدبنا العربى القديم، لكنه يجب الاعتراف بأن الحكايات المروية للأطفال كانت تعيش عالة على «خيال الكبار وتسير فى ظل الخيال تستلهم منه عناصرها، وتتخذ من التراث الإنسانى المصدرالذى تأخذ منه مضامينها، وصارت حكايات الأطفال كالجدول الصغير ينساب من فيض النهر الكبير، من قصص الكبار»[١٨] ومهما يكن من شىء فإن مفهوم الحكايات بأنواعها يطوف فى عقل الطفل بدرجة كبيرة، ويفزع الطفل عندما يسمع أو تنطق أمامه كلمة «قصة خرافية» والتى تستحضر فى ذهنه صوراً مدهشة ولا يمكننا تخيل مناهج التعليم المدرسى دون سماع الأطفال لقصص الخيال أو أن يخلقوا هم الأقاصيص من وحى خيالهم، وقصص الحيوان تقوم بأدوار هامة ووظائف حيوية فى حياة الطفل كانتصار الحيوان الذكى صاحب الحيلة على الحيوان الغبى المغفل ولو كان قويا.

ومثل هذا القص يثير خيال الطفل ويستجيب لخاصيتين عنده هما: حبه للحياة، وقدرته على إدراك المشابهات دون الدخول فى تفاصيل وجوه الشبه والاختلاف[١٩] . ويرد الدكتور محمود ذهنى أسباب التقسيمات الفرعية أو بعبارة أخرى التقسيمات النوعية، الفرعية التى طرأت على اللونين الأساسيين فى الحكايات وهما: الحكايات الخرافية المسلية (حكايات الجان)، والحكايات على السنة

الحيوان - يرد اسباب ذلك- إلى طبيعة التطور فى خصائص الأدب الشعبى من ناحية، أو الاتجاه التخصصى الدقيق للعلوم والفنون والآداب من ناحية أخرى، وفى ضوء ذلك يذكر: «إذا كان الأدب الرسمى أدبا ثابتا يتطلب سلامة النص، وتوثيق الأصل وصحة النسب، فإن الأدب الشعبى أدب متغير متطور، لا يبقى على حال واحدة، بل لا يغير من عصر إلى عصر ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن بيئة إلى بيئة، ومن مجال إلى مجال، فالحكاية الشعبية مثلا قد يكون لها أصل مدون فى كتب التراث، ولكنها تحكى بطرق مختلفة متعددة تناسب كل منها زمن حكايتها والبيئة التى تحكى فيها، وحال المتلقين، وتفسيرا لهذه الظاهرة يقول المتخصصون إن العصر الأصلى فى الحكاية واحد أو ثابت، وتتغير من حوله عناصر الربط والشكل البنائى، فينتج عنها عشرات الحكايات المتحدة فى الفكرة، المختلفة فى الشكل وبالتالى مختلفة فى الهدف»[٢٠].

ولاريب أن أدبنا العربى عبر عصوره المتتابعة من زمن العصر الذى سبق ظهور الاسلام إلى الأزمنة الحاضرة وما بينهما، قدم مادة خصبة من الحكايات الأصلية فى تراثنا العربى، تعد من أغنى المصادر الأدبية فى حكايات الجن والخرافة والأسطورة، بحيث أمتعت بمضمونها الثرى المتنوع وبشخصياتها غير الطبيعية وغير البشرية الأجيال المتعاقبة من الأطفال العرب.

ومن أشهر الحكايات الباقية عن التراث العربى، حكايات وقصص

ألف ليلة وليلة، وحي بن يقظان، وأفكار وعناصر من مقامات بديع الزمان الهمذاني، وكليلة ودمنة وغيرها من النوادر والأمثال الوعظية والأدب الحكيم أو القصص المسلية. وقد تولدت موضوعات جديدة عن أصول تلك الحكايات العربية الراقية «فمن الموضوعات التي أذاعتها ألف ليلة وليلة ومكنت لها في عالم الأدب موضوع الرحلات، ولقد أوحت قصص السندباد إلى كثير من كتاب الرحلات في الغرب أن يؤلفوا عن رحلاتهم أو عما يتخيلون من رحلات.. كذلك أحيت قصص ألف ليلة وليلة موضوع أدب الحيوان، فأصبحنا نجد الكثير منه، وخاصة في أدب الأطفال والصبية، كذلك موضوع أدب الحيوان أو الأدب الحكيم، وكان الفضل في إبرازه بصوره جيدة يعود إلى قصص ألف ليلة وليلة»[٢١] وألف ليلة وليلة من أهم المنابع الأولى في التراث العربي، التي تحوي فيما تحوي نماذج عجيبة وغريبة ومثيرة في الأفكار والشخصيات والسرد على ألسنة البشر والحيوان والطير والجن والشياطين وبساط الريح وغيرها، وتضم أصول كتاب ألف ليلة وليلة العديد من القصص الخيالية والطريفة والنادرة، وهي في مجمل دلالتها الفنية تعبير عن الخيال الخصب في الأدب العربي، لعلنا مازلنا نذكر الحكايات التي تم تداولها أو تبسيطها للناشئين من كتاب ألف ليلة وليلة مثل حكاية بساط الريح الذي جاب البلدان، والجواد الخشبي الذي إذا فرك عرفه صهل بسبب حكمة صنعه التي صنع بها، أيضا قصة عبد الله البري وعبد الله البحري، وكيف أن عبد الله

البرى استطاع أن ينزل إلى أعماق البحار ويجوب فيها ويعرف خوافيها وغيرها من القصص التى قرأها الأطفال أو استمعوا إليها مثل: على بابا، عبد الله والدرويش، الملك العجيب، السندباد البحرى وغيرها من مثل هذه الحكايات القصصية المثيرة والعجيبة يستمتع بها الطفل وتنمى خياله.

ومن الثابت أن الخيال القصصى ينمى لدى الأطفال المعرفة بالكون والكائنات، بالطبيعة ومفرداتها، ومن ثم يتحول هؤلاء الأطفال بالتدريج إلى الاقتراب من الحقيقة أوالواقع، من خلال الانغماس بين صراع الخير والشر فى المغامرات القصصية الخيالية التى تنقلهم من عالم محدود إلى عالم متسع لا حدود له، فلا توجد قصة أو حكاية بدون خيال. وفى ضوء هذا يمكننا القول بأن «القصص الخيالية تجعل الأطفال أكثر وعيا بالعالم ليس فقط عن طريق عقولهم بل عن طريق وجدانهم أيضا. فهم لا يكتسبون المعرفة من خلال الأحداث والأفكار الخيالية ولكنهم يتفاعلون مع الأحداث والظواهر فى العالم المحيط بهم»[٢٢] ونحن واجدون بالطبع فى بناء الحكايات القصصية صياغة فنية غير مألوفة للقصة أو الرواية بمعناها الفنى الحديث، إذ الأصل فى الحكايات الخرافية أن تصوغ عالمها الفنى الخاص بها بأسلوب منعزل عن معطيات الزمان والمكان، عن طريق الأشياء المألوفة وباستخدام السحر والاثارة، والتسطيح وحفز الخيال، والبناء الفنى للحكاية يتناغم مع عقل الطفل وإدراكه لأنه بناء يتسم

بالتجريد، والابتعاد عن الواقع الذى لا يصل إليه الطفل إلا مع دخوله مرحلة الفتوة والشباب.

لذلك تحاول الحكاية بأسلوبها الانعزالى التجريدى خلق عالم أثيرى أجمل من العالم الواقعى وأكثر منه بهاء وتسلية وسحرا. إن أول شيء يسترعى نظرنا فى الحكاية الخرافية هو اتجاهها الأخلاقى، فهى تكافىء الخيِّر بخيره والشرير بشره.. وربما كان من المألوف فى الحكايات الخرافية أن الطفل يظهر له في ساعة يأسه رجل، أو امرأة عجوز تقدم له النصح وتسدى له المعونة، وقد يظهر له حيوان خير يتحدث إليه ويقدم له المساعدة اللازمة.. إن بطولة الطفل ظاهرة تشيع في الأسطورة أو الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية على السواء.

وتحقق الأنواع القصصية الموجهة للطفل فى مضامينها المتعددة البناء التربوى المتمثل فى الأدب التهذيبى والتعليمى، فقصص الحيوان حكايات قصيرة تهدف إلى أن تنقل معنى أخلاقيا أو تعليميا، أو حكمة، أو تنقل مغزى أدبيا، وعادة ما تكون الشخصيات الرئيسية فيها حيوانات أو جمادات أو نباتات لكنها تحمل صفات الإنسان وتعمل عمله، وفى الواقع إن المكتبة العربية لها فضل الريادة فى مجال تأصيل حكايات الحيوان من حيث التأليف والجمع.

ويعد كتاب ابن المقفع (٧٢٤ - ٧٥٩م) أشهر كتاب فى الأدب القصصى على ألسنة الحيوان والطير «.. فكتاب كليلة ودمنة لمؤلفه

الأصلى الفيلسوف الهندى بيدبا، يحتوى على حكايات وأقاصيص خيالية على أفواه البهائم والطير لإظهار الحكمة والتهذيب والتثقيف باستخدام وسيلة أدبية هى القص الخيالى الرمزى، ومادة الكتاب تزخر بالأمثال والأحاديث الوعظية، وتنطق بالحكمة فى ثوب من السحر والخيال والتشويق»[٢٣] وقد تأثر بهذا الكتاب فى مجال الاقتباس والمحاكاة معظم الآداب الأجنبية فى العصور الأدبية المختلفة. والآداب الاجنبية التى اقتبست الحكايات القصصية وحكايات الحيوان من الأدب العربى مدينة فى الأخذ بالمادة الموضوعة أصلاً فى كتب التراث من مثل ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والملاحم القصصية الشعبية، وقد ألبس هؤلاء الأجانب المادة العربية الأصلية من فيض محاكاتهم واقتباسهم وفنهم فى التصرف[٢٤] فى مادة موضوعاتها ليلائموا أذواقهم.

والذى لا جدال فيه أن الأصول الأولى للحكايات القصصية فى مجال الأدب الوعظى التهذيبى أو الأدب الحكيم يعود الفضل فى ظهورها فى الآداب الاجنبية إلى الجذور التراثية فى أدبنا القديم.

ونستطيع استقراء فضل تلك الريادة من فقرة أوردها ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة تقول: «.. وأما كتاب كليلة ودمنة فجمع حكمة ولهوا، فاختاره الحكماء لحكمته والأغرار للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ما صار إليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ما هو، بل عرف أنه قد ظفر بمكتوب مرقوم.. وأول ما ينبغى لمن قرأ هذا

الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له، والرموز التى رمزت إليه وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصح وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا»(٢٥) ونستطيع القول فى اطمئنان أن المقدمة السابقة التى أوردها ابن المقفع فى كليلة ودمنة تحمل، غير الريادة التى أشرنا إليها، إظهار الحكمة على أفواه البهائم والطير - تحمل التوجيه الأخلاقى والمعرفى للكبار والصغار فى آن واحد وبلون أدبى ورمزى، ويزعم المؤلف أن اختزان الأطفال لمغزى حكايات وأمثال الكتاب عن طريق الحفظ هى نظرة تربوية تحمل التعليم والتهذيب كذلك، وهو الذى قصده من عبارة المقدمة: «والمتعلم من الأحداث (الصغار) ناشط فى حفظ ما صار إليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ما هو بل عرف أنه ظفر من ذلك بكتاب مرقوم». وعناية الأدب العربى القديم بالحكايات القصصية والخرافية وقصص الجان، لم تأت من فراغ، بل نتيجة منطقية لتطور حياة الجماعة العربية العقلية والاجتماعية. فأخبار الأمم السابقة، وذكر أيامهم ووقائعهم، وتطور الخيال للبحث فى الكون - كل ذلك - أملى على العرب إرهاصات الأخبار والسرد والقص، ومن ثم تطورت إلى مأثورات ومرويات وحكايات تجمع بين المنفعة والتسلية، وقد أحس العربى بعمق نظرته أنه فى بيئة خصبة تضم إلى جوار البشر، الطير والحيوان فى ذلك الواقع المعيش وتنبه بإعمال خياله إلى الاعتقاد بوجود كائنات أخرى لا يعرف كنهها، فهى عنده الجان

والشياطين تارة، والملائكة والآلهة تارة أخري، وفى تراث الانسانية مرويات تجعل الحيوان أو الطير يتحدث بالأنباء والخيال، كما ورد فى القرآن الكريم غير مرة - فى سياق السور - آيات، تتحدث عن الحيوان والطير[٢٦] ومن الملامح الدالة على ذيوع الأساطير فى البيئة العربية القديمة وجود الأساطير الطقوسية وأساطير الخلق أو التكوين، وما واكبها من وجود الأسطورة الرمزية التى تحمل الرمز فى مضمونها . ومؤداها أنه لما كان الإنسان مازال يعيش فى جو أسطورى، حول الآلهة، فقد خلع صفات العالم الإنسانى على الآلهة فأصبحت الآلهة تتصرف تصرف الإنسان أو أصبح الإنسان يسلك مسلكا إنسانيا من خلال الآلهة.

وقد يقول قائل: ما علاقة الأسطورة وأنواع الأساطير بالطفل؟.. ومحاولة المؤلف للرد على هذا التساؤل يسيرة، إذ الهدف من الأسطورة فى الغالب هو إعادة النظام للحياة وتقوم بوظيفتها الأخلاقية فى هداية الإنسان وهى قبل تلك الغاية لتفسير الكون بظواهره لأنها تحتاج الخيال الذى لا يخلو من المنطق، وقد عرفت الحضارات الإنسانية - وعلى الأخص الحضارة الشرقية - العديد من النماذج الأسطورية، قبل ظهور الأديان، فأسطورة أوزوريس فى الأدب الفرعونى القديم وأسطورة التكوين البابلية وأسطورة جلجامش الآشورية من أنواع الأساطير التى سبقت ظهور الأديان. الأمر الذى يؤكد مقولة برونسلامالينوفسكى القائلة بأن «الأسطورة

تقوم بوظيفة لاغناء عنها فهى تعبر عن العقيدة وتزكيها وتقننها وتصون الأخلاق وتدعمها وتبرهن على كفاءة الطقوس وتضم قواعد عملية لهداية الإنسان»[٢٧] إن شغف الطفل بالاستماع والاستمتاع بالحكايات الخرافية والأسطورية مسلمة من المسلمات عميقة الصلة بخصائص مرحلة الطفولة واحتياجها ما يساعد على حفز خيال الطفل وتنمية مداركه بالتفاعل بالظاهرة المحيطة به ومحاولة سبر أغوارها، فالطفل مولع بالخيال ومحاولة ايجاد العلاقة بين الظواهر والأشياء غير المألوفة[٢٨] ولو لم يكن للحكايات القصصية أو الخرافية أو الأساطير وجود فوق خارطة الأدب العربى ما عاشت مثل تلك الفنون النثرية الأدبية بين الأجيال تتردد وتدون، بل وتستمر ينبوعا أصيلا للمحاكاة والاقتباس فى الآداب الأجنبية، على نحو استلهام الغرب لمضامين ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وحى بنى يقظان وغيرها من الحكايات القصصية المفيدة والعجيبة وقصص الحيوان Fables وقصص المخلوقات المفيدة والعجيبة التى تضمنها كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى أو الحيوان للجاحظ، والحيوان للدميرى، أو فى السير والملاحم المثيرة فى تتابع أحداثها ومعجزات أبطالها وعبقرية مضامينها وأشهرها فى الأدب العربى السيرة الهلالية وسيف بن ذى يزن وعنترة بن شداد والأميرة ذات الهمة وغيرها.

وتكاد تتفق الروايات أن أول من قص القصص وحدث بالحكايات فى الأدب العربى مع ظهور الاسلام هو تميم الدارى وهو نصرانى

أسلم فى سنة تسع من الهجرة، ومن أشهر ما قص به من قصص خيالي قصة (الجساسة والدجال)[٢٩] وتحمل هذه القصة فى مضمونها النظر الجزئي والموضوعي للعقلية العربية، ويمثل شكلها التعبيرى إشراك الحيوان فى الحكاية وتروى قصة الجساسة والدجال «على لسان الدارى»[٣٠].. أنه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهرا فى البحر ثم ارتأو أن يأووا إلى جزيرة فى البحر حين مغرب الشمس فجلسوا فى أقرب سفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم «دابة» أهلب كثيرة الشعر فقال: ويلك ما أنت؟ فقالت أنا الجساسة، وسميت الجساسة لأنها تتجسس الأخبار فتأتى بها الدجال. ومما يذكر فى هذا الشأن أن صورة تقديم الحكايات القصصية العربية كانت تؤدى على ألسنة الرواة فى الأسواق ومنتديات السمار وعلى ألسنة المربيات والجوارى فى بيوت الأغنياء قبل الاسلام، وبظهور الاسلام كانت تؤدى الحكايات القصصية فى المسجد بالإضافة إلى الأماكن التى ذكرناها، وكان القصاصون الرواة يتولون مهمة القص من داخل المسجد، والناس من حول القاص يتحلقونه ويستمعون إلى ما يلقيه عليهم من قصص وحكايات وأمثال وأساطير، وكان يضيف إلى مادته ما يضفى عليها المتعة والمنفعة والخيال فكان لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب. ومن المؤكد أن إدخال القاص لمفهوم

الترغيب والترهيب فى الحكايات القصصية يمثل - غير النظرة العقيدية - تطور الشعور الجمعي والعقل العربى باعتناق دين سماوى روحى يسمو بالإنسان ويتجاوز جمود صراع الأفكار البدائية إلى صراع جديد محوره العقل والوجدان، وينمى لدى الإنسان الميل إلى الاستقصاء والإدراك وحفز الخيال.

وقبل أن ننتقل من الحكايات القصصية والأسطورية التى أشرنا إلى وجودها فى أدبنا العربى القديم إلى أنواع نثرية لها أهميتها بالنسبة للطفل تجدر الإشارة إلى أن كتب اللغة والآداب التى أشرنا إليها غير مرة تشتمل على وصف دقيق لنتاج خاص بالأطفال وتعرض صفحات عديدة لحكايات ومقطوعات وأخبار تدلنا على اهتمام العقل العربى بالطفولة، وكيف كان المؤدبون يعاملون تلاميذهم ويكافئون النابهين منهم. إن استقراء تاريخنا الأدبى يعطينا حقيقة هامة فى مجال أدب الأطفال وهى اهتمام العقل العربى بالأنواع القصصية الموجهة للطفولة. وقد كتب لتلك الحقيقة الاستمرار إلى عصرنا الحاضر، فالقصة أو الحكاية التى تقدم للطفل هى لون أدبى رائد فى المناهج التربوية وعلى ألسنة الأمهات المعاصرات اللائى يهملن هذا الجانب، فالحكايات القصصية تلائم طبيعة مراحل انتقال الطفل من مرحلة ما قبل المفاهيم (النمو الحركى والحس العقلى) إلى مرحلة الخيال المنطلق، ومن الخيال المنطلق إلى مرحلة الاقتراب من

العمليات الفكرية المحسوسة (الواقع). وفى قصة حى بن يقظان ما يؤكد صدق تلك المقولة السابقة ومدى معرفة العربى بأبعاد القصة وعلاقاتها بخصائص الطفولة، فابن طفيل فى سرده لحى بن يقظان هيأ خيال الصغير للادراك وشغف الاستمتاع، فهو يرى بخياله الرائع أن الجسد الحى تتحكم فيه عناصر أربعة هى أساس وجود حى بن يقظان الذى نشأ نتيجة منطقية لتفاعل العناصر الأربعة فى جزيرة طيبة الأرض والهواء معتدلة المناخ، وما أن تكون حى بن يقظان حتى تتولى رعايته غزالة أرضعته من لبنها حتى شب وأدرك وأصبح عقله هو قائده الذى يرشده ويهديه، ثم عرف من بعد حقائق الأمور المحيطة به إلى أن أدرك الخالق جل جلاله. إن الاستقراء المفصل لحكايات ألف ليلة وليلة، وحكايات كليلة ودمنة، وقصص الحيوان عند الجاحظ والقزوينى والدميرى وحكايات الخوارق، وما تتضمنه عناصرها من أحداث وشخصيات وغرائب وعجائب وأفكار، يدلنا على وجود مادة أدبية قصصية، لها خصوبتها، وآثارها، ويمكن للمبدعين الذين يتوفرون على كتابة نوع أو أنواع نثرية فى أدبنا العربى أن يجلوا صفحاتها ويعمقون توجهاتها من خلال إعادة المعالجة لأصول تلك النصوص الأدبية أيضا إمكانية تبسيطهم تلك الأنواع الأدبية، للطفل لأهمية تأثيرها الوجدانى فى نفوسهم وشخصياتهم. إن ولع الأطفال المعهود بالحيوان والطير يحفزنا

لتقديم[٢١] المادة القصصية - مكتوبة ومروية - فى أشكال جذابة تجمع بين التسلية والمتعة والفائدة وصقل الخيال وحفز الادراك، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن تقديم المادة القصصية للأطفال نقلا عن أصولها الأولى يتطلب التنقيح والتهذيب بما يلائم خصائص الطفولة.

الأمثال والحكم والوصايا (الأدب الحكيم):

أوضح المبحث السابق أهمية تأثير الأشكال القصصية الموجودة فى التراث العربى فى التكوين الأدبى للأطفال، واستتبع ذلك التعرض لنشأة وتطور أنواع الحكايات القصصية والأسطورية فى الأدبين الرسمى والشعبى عن طريق استقراء الأصول التراثية للحكايات بأنواعها وتتبع انتقالها من جيل إلى جيل، وقد ألمحنا كذلك إلى عمليات التعديل أو التبسيط التى تمت على ألسنة الرواة والمعلمين والمؤدبين بما يحقق النظرة الوظيفية للأدب.

وعرفنا أن القصص الخيالي هو الذى يجرى - فى معظمه - على ألسنة الحيوانات والطيور والجمادات، ويشترك الإنسان أحيانا فى هذا اللون الأدبى بطريقة غير مألوفة تتسم أحداثها وتفصيلاتها بخرق النواميس الكونية، كما أن القصص التهذيبي أو التعليمى يهدف بطريقة مباشرة إلى غرس القيم العليا الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والمثل السامية فى عقل ووجدان الطفل، أما القصص الأسطورى والذى يعزى وجوده إلى عصور سحيقة فكان يدور حول

الجان أو الشياطين والمخلوقات الغريبة[٣٢] وغيرها، وأهم ما يميز هذا اللون القصصى قيام البطل الأسطورى بخوارق العادات ومواجهة الصعاب التى تعترضه من خلال تسلسل أحداث مثيرة تهدف إلى إعادة تنظيم الحياة.

وليس بمقدور المؤلف المنصف وهو يرصد ظاهرة مادة أدب الطفل فى تراثنا العربى ويتتبع وجود أشكالها النثرية والشعرية أن يسقط من بين ثنايا كتابه عدة أنواع نثرية لها تأثيرها على الناشئين، وقد كتب لبعضها الآخر التوقف عن المسير تبعا لتطور الحياة العقلية والاجتماعية للأمة.

وتعد مقامات بديع الزمان الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) أحد الأصول التراثية التى تزخر بالقصص والأمثال والحكم بحيث يمكن إعادة تبسيطها للأطفال لأن الأسلوب اللغوى، نثره وشعره فى مقامات الهمذانى يصعب فهمه وإدراكه من قبل الأطفال، ويمكن لكتاب الطفولة إعادة المعالجة بالتبسيط دون أن تفقد أصالتها ومضامينها الفريدة، أو وظائفها الأخلاقية.

ومن الأنواع النثرية فى الأدب العربى التى كتب لها الاستمرار: الأمثال والحكم والوصايا، وهى أنواع تنتشر مادتها الأدبية فى الأدبين الرسمى والشعبى، ونحاول من خلال السطور التالية بيان علاقة تلك الأنواع بالطفولة وتكوينها الأدبى.

الأمثال الحكيمة :

الأدب الحكيم، أو الأقوال الحكيمة من مأثور القول والحكمة والمثل والوصايا والعظات، هى جميعا خير تعبير يمثل الرؤية الأخلاقية فى أدبنا الموروث. وقد خاطبت هذه الألوان الأدبية فى أحد مقاصدها وجدان الطفل وحواسه بمثل مخاطبتها عقله ومنطقه. وقد لعبت هذه الألوان دورها الحاسم فى التكوين الأدبى للأطفال. ومما يلفت النظر أن الأدب العربى قد جعل محور ارتكازه بالنسبة لتكوين الطفل الأدبى من خلال الحكم والأمثال والمواعظ والمأثور الشعرى والنثرى من القول قبل تعامل الأطفال مع الحكايات القصصية وما تتطلبه من نمو معرفى ووجدانى لمتابعة الأفكار والأحداث والخيال والمقاصد الأخلاقية. وقد قال الله عز وجل فى شأن كمال النبوة الأخلاقى «وإنك لعلى خلق عظيم» الآية ٤ سورة القلم.

وقال سبحانه وتعالى: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» فالعتيد هو المهيأ والحاضر واعتد الشىء هيأه وأعده[٣٣] فالنظرة الإلهية للنبوة تتسم بالكمال الأخلاقى، ولنا فى رسول الله (ص) الأسوة الحسنة، كما أن الأدب العربى فى إحدى غاياته لا ينفصل عن تلك الرؤية الاسلامية الشاملة، فالأدب من هذا الجانب التهذيبى الأخلاقى يمثل «كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان، والمحاكاة

تكون بمزاولة الأقوال الحكيمة التى تضمنتها لغة أى أمة وهو ما أودع نثرها وشعرها من نتاج عقول أبنائها وأمثلة طبائعهم، وصور أخيلتهم ومبلغ بيانهم. مما شأنه أن يهذب النفس، ويثقف العقل ويقوم اللسان»[٣٤] والعقلية العربية احتفلت بالطفل من زمن ولادته إلى أن يشب، فالأدب فى أحد مقاصده العربية رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغى أن يكون، وكان الطفل ينمو ويشب على القول الجميل والمنظوم والمنثور، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهى التى قال الله عز وجل فيها: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) سورة البقرة الآية ٢٦٩، وفى الحديث النبوى (إن خياركم أحسنكم أخلاقا)[٣٥].

وقال النبى عليه الصلاة والسلام فى معنى استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة والبيان المؤثر «إن من البيان لسحرا»، ومقولة على بن ابى طالب «علموا بينكم أخلاقا غير أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم» مقولة لها مغزاها فى ضرورة حسن إعداد الطفل للمستقبل الذى ينتظر الأم»[٣٦] وقيل «إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ فقال أقلهم لفظا وأسهلهم معنى وأحسنهم بديهة. ولم يكن فى ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم وأفتخر به حيث يقول نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم، وذلك أن كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ

اليسير الدال على المعانى الكثيرة»[٢٧].

وفى آيات القرآن الكريم من الحكم والأمثال وجوامع الكلم، التى تجرى بين الناس هداية ووعاء للمعانى والقيم المحمودة، من مثل : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) و(حكمة بالغة فما تغنى النذر) و(اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) و(قل لا يستوى الخبيث والطيب). فالأدب الوعظى الحكيم يلعب دوره المباشر فى حفز مشاعر الأطفال، والآداب القديمة تزخر بالحكم والوصايا، وأشهرها ذيوعاً وتأثيراً تلك التى يحدثنا عنها القرآن الكريم (إذ قال لقمان لأبنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) الآية ١٣ سورة لقمان.

وما من شك أن شغف عقول الأطفال بالمجهول وميلهم إلى حب الاستقصاء جعل الرواة وعلماء اللغة والأدب والمعلمون والمؤدبون يحفزون خيال الطفل العربى بالوقوف والتأمل عند الأمم السابقة كى يحصلوا على ثمرة القول السائر والحكمة الباقية. وفى ذلك قال أكثم بن صيفى حكيم العرب (ذللوا أخلاقكم للمطالب وقودوها إلى المحامد وعلموها المكارم ولا تقيموها على خلق تذمونه)[٢٨] فالأخلاق المحمودة غاية وظيفية أجد وسائلها الأدب بمعناه التهذيبى العام ومعناه الأدبى الخاص كذلك، فالقدرة المكتسبة التى يكتسبها الطفل من تأثير الأنواع الأدبية فى النفوس من أهم الدعائم الوجدانية التى تؤسس عليها الملكات اللغوية والأدبية بين الناشئين «وللعرب نظرتهم الفلسفية

للكون، وهى نظرة ذات طبيعة خاصة تتسم بالجزئية والتغير.. وعلى أساس هذه النظرة تملكوا ألسنتهم»[٣٩] وهناك علاقة من نوع خاص تتعلق بالادراك لدى الأطفال ومدى فهمهم للحكم القصار والأمثال الحكيمة - نثرية وشعرية - فالحكمة أو المثل من أقرب الفنون وصولا إلى عقل الطفل وإدراكه بسبب قصر الحكمة أو المثل وإيجازهما من ناحية والبساطة فى الأسلوب اللغوى المستعمل من ناحية أخرى.

وهذا لا يعنى أن الأمثال والحكم التى وصلتنا عبر العصور الأدبية من تاريخ أدبنا العربى كانت فى جملتها رسالة أدبية موجهة للكبار فى المقام الأول من خلال خطبة أو عظة أو منظومة أو رواية ونحو ذلك من وسائط الابلاغ أو التدوين، ولكن الذى لا شك فيه أيضا، أن أمثال العرب وحكمهم لم تخل من نماذج نثرية أو شعرية يفيد منها الطفل ويستمتع ببيانها، ومن الإنصاف إذن القول بأن تأثير الأمثال والحكم فى نفوس الكبار له ما يبرر تأثيره كذلك فى نفوس الصغار. وهذا يقربنا من تعريف المثل وتأثيره. فكلمة «مثل» تطلق على الحكمة السائرة، وعلى الحكاية القصيرة ذات المغزى وهى مأخوذة لغة من قولك: مثل هذا الشىء، ومثله كما تقول: شبه وشبهة فالأصل فى المثل التشبيه بواسطة الأداء اللغوى البسيط الموجز[٤٠].

والأمثال مرآة تريك صور الأمم وقد مضت، وتقفك على أخلاقها وقد انقضت، وهى ميزان يوزن به رقى الشعوب وانحطاطها،

وسعادتها وشقاؤها، وأدبها ولغتها، ولقد أكثر العرب منها فلم يتركوا بابا إلا ولجوه، ولا طريقا إلا وسلكوه وقد أفردها العلماء بالتأليف، وأقدم الأمثال المأثورة هى أمثال لقمان الحكيم. «والمثل قول محكى سائر يقصد منه تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله، والحكمة قول رائع يتضمن حكما صحيحا سليما. وكما يكون كل منهما نثرا يكون نظماً»[٤١] وفى الحديث: إن من الشعر لحكما، أى أن فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما، قيل أراد بها المواعظ والأمثال التى ينتفع الناس بها.. ويرى أن من الشعر لحكمة، وهو بمعنى الحكم.. وقد سمى الأعشى القصيدة المحكمة حكيمة فقال:(وغريبة تأتى الملوك حكيمة.. قد قلتها ليقال: من ذا قالها؟) والمثل لغة: «الشىء الذى يضرب لشىء مثال فيجعله مثله، وفى الصحاح: ما يضربه من الأمثال.. وقد يكون المثل بمعنى العبرة، وماثل الشىء: شابهه»[٤٢]. وفى غير موضع من سور القرآن الكريم وردت لفظة المثل ومنه: قول الله عز وجل: (يا أيها الناس ضرب مثلا فاستمعوا له)،(مثل الجنة التى وعد المتقون).

ومما يلاحظ أن الذوق العربى جعل الأمثال الحكيمة والحكم القصار ترجمة لشئون الحياة ووصف مظاهرها، ورصد الخبرات المستفادة منها، لذلك تعد الحكمة محورا للاستدلال العقلى ونقل الخبرة بين الأجيال وأشهر الحكم العربية المأثورة هى التى قال بها

أكثم بن صيفى فى الجاهلية والإمام على بن أبى طالب فى الاسلام وغيرهما من حكماء العرب. وقديما اتفقت مقولة الألوسى مع ابن رشيق فى أن العرب كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما، وأطلقهم ألسنة وأوفرهم إلهاما، استتبع ذلك «أن حكمة العرب أشرف الحكم»(٤٣) وعلى بساطة لغة الحكمة أو المثل فهما يطلقان الخيال للمعانى المقصودة من وراء ضربهما، وهو خيال غير تركيبى لا يعرف المبالغة والإغراق والتعتيم، لأن الصورة الفنية فى الأدب الحكيم تنتزع من شئون الحياة وخبراتها، ومن الطريف أن توجد طائفة كثيرة ومتنوعة من الأمثال الحكيمة نثرية وشعرية فى أدبنا العربى، يدخل فيها عنصر الحيوان، الأمر الذى يعمق من مفهوم الأدب التهذيبى على ألسنة الحيوان والطير ومدى صلاتهما المعهودة والمحببة إلى عالم الطفل. وفى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن «الأدب التهذيبى» أو التعليمى فى الأمثال ينحو إلى افتراض من نوع ما يرمز إلى واقعة أو ظاهرة فى فترة زمنية من حياة المجتمع يكثر فيها الظلم.

ويميل المؤلف إلى الرأى القائل أن الأمثال الحكيمة الفرضية «تكثر فى الأيام التى يكثر فيها الجور والاستبداد والتضييق على الهداة والمرشدين، فيضطرون إليها للوصول إلى أغراضهم، مع الأمن على حياتهم على ما فيها من الترويج عن المخاطر، ولطف المدخل، وجمال الفكاهة المطوية فى تضاعيفها النصحية».(٤٤) ومن الأمثلة

الفرضية: فى بيته يؤتى الحكم، وهو محكى لسان الضب. ومنه أيضا: أحمق من عجل. وهو عجل بن لجيم وذلك أنه قيل له: ما اسميت فرسك؟ ففقأ عينيه، قال سميته الأعور، فقال الشاعر:(٤٥)

رمتنى بنو عجل بداء أبيهم ... وأى امرىء فى الحمق أحمق من عجل
أليس أبوهم عار عين جواده ... فصارت به الأمثال تضرب فى الجهل

ومن الأمثال النثرية التى ترتبط بحكاية أو طرفه مأثورة:

رب رمية من غير رام ... ما يوم حليمة بسر
مكره أخاك لا بطل ... سبق السيف العذل

ومن الأمثال المنظومة :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ، ... ان كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا

ومنه أيضا :

أن ترد الماء بماء أوفق ... لا ذنب لى قد قلت للقوم استقوا

ومن كذلك قول ابو العتاهية:

والنقرذل عليه باب ... مفتاحه العجز والتوانى

ويقول بشارد بن يرد:

وليس عتاب المرء للمرء نافعا ... إذا لم يكن للمرء لب يعاتبه

وقال طرفه بن العبد: كلهم أروغ من ثعلب، ما أشبه الليلة بالبارحة. وديوان الشعر العربى كما هو معلوم، تتناثر فوق صفحاته منظومات غزيرة فى الحكم القصار والأمثال الحكيمة مما يمكننا من

انتخاب ما يوافق عقل الطفل وإدراكه، وهذا لا يتعارض مع شعر الحكمة كغرض أساسى من أغراض الشعر العربى الموجه للكبار وتبقى بطبيعة الحال الفروق فى التوجه واللغة لدى المتلقى.

ان استقراء الأمثال الحكيمة والحكم القصار يعطينا من السهولة فى الألفاظ وإعمال الخيال، وذكر خلق العالم وفنائه وأحوال الآخرة وصفات الخالق، والافادة من مواقف وخبرات الحياة، فالحكمة كلمة جامعة تلخص نظرية أو مجموعة ملاحظات وتجارب المفروض فيها أن يسلم بها الجميع. مثال ذلك قول المتنبى:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

والمثل فى تعريفه ونماذجه التى عرضنا لها، يتضمن الحكمة الذائعة منذ القدم وتتضمن ملاحظة عامة، غالبا ما تكون فى أسلوب مجازى من مثل: اليأس إحدى الراحتين. المورد كثير الزحام. فالحكمة والمثل يكتب لهما الخلود والنقل بين الأجيال تدوينا ورواية نظرا لتداولهما بين الناس وتميزهما بالدلالة الموحية الموجزة. وكثيرا ما تسمى الحكم القصار والأمثال بالمثل المتداول أو المثل السائر. ومن الثابت أن الجملة القصيرة الموجزة، أو المقطوعات ذات البحور الشعرية الخفيفة المجزوءة أقرب إلى عقل الطفل وادراكه من الجملة الطويلة المحملة بالخيالات البعيدة والألفاظ الحوشية المبهمة.

وأدب الأمثال والحكم فى النهاية له جذوره الضاربة فى أعماق تاريخنا العربى. وقبل تدوين الحكم والأمثال العربية حفظ الموروث

الشعبى أدب الأمثال والحكم على نحو ما نقلناه عن الآداب القديمة البابلية والكنعانية والمصرية والهندية وغيرها، ولأهمية الأمثال فقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ ألف فيه صحار العبدى أحد النسابين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١- ٦٠هـ) كما ألف فيها عبيد بن شريه معاصره كتابا آخر، ويقول صاحب الفهرست أنه رآه فى خمسين ورقة. وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعا يهتمون بها ويؤلفون فيها، وقد وصلنا من هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى. ونمضى إلى القرن الثالث لنجد الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام. وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى حتى يؤلف أبو هلال العسكرى كتابه «جمهرة الأمثال» ويخلفه الميدانى فيؤلف كتابه «مجمع الأمثال» وهو يقول فى مقدمته أنه رجع إلى ما يربو على خمسين كتابا.

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التى تسمى مثلا، ولا يكتفون بذلك، بل يقفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل وقد تتمخض عن أمثال فتروى فى تضاعيفها[٤٦]، وقد اهتم علماء الاستشراق بالأمثال العربية الحكيمة. وأبرز محاولة علمية فى هذا الشأن قام بها المستشرق الالمانى چورچ فيلهام فريتاخ (١٧٨٨ - ١٨٦١م) حيث توفر على إصدار موسوعة

كبرى بعنوان «أمثال العرب» فى ثلاث مجلدات ضمت ثلاثة الآف وثلثمائة وواحد وثلاثين مثلا عربيا. والأهم من إصداره الموسوعة هو اضطلاعه بجهد علمى فائق رائد فى ترجمة «أمثال لقمان الحكيم» إلى اللاتينية نقلا عن مخطوطه عربية موجودة بباريس[٤٧] فقد وجد مادتها الثرية تفيض بالفائدة وما تحمله من مقاصد أخلاقية وتعليمية ووعظية. وبالرغم من أن كتاب فريتاخ «أمثال العرب» له فضل يذكر على المكتبة العربية فإن عمدة كتب الأمثال عند العرب هو كتاب مجمع الأمثال للميدانى[٤٧] لأنه جمع مادة كتابه القيم بعد الرجوع لمظان الأمثال العربية الأولى، فجاء كتاب الميدانى أغزر مادة وأقوى مضمونا فى جمعه وتأليفه، وقد بلغ عدد الأمثال التى أوردها الميدانى كتابه أربعة آلاف وسبعمائة وستة وخمسين مثلا عربيا، وهذا لا يقلل من دور التحقيق والترجمة اللذين قام بهما فريتاخ فى تقديم لون أدبى عربى إلى الآداب الإنسانية.

إن الحكم القصار والأمثال الحكيمة الموروثة تحقق الوظيفة اللغوية والأخلاقية باعتبارها وقفا على الأدب التهذيبى والوعظى والأخلاقى، واستخدام الأسلوب اللغوى البسيط والموجز فى تلك الأنواع الأدبية أدى وظيفته بحيث يتعامل الطفل مع اللغة فى العبارة أو الجملة القصيرة الدالة وفى إيجازها الإيقاعى، وفى إطار هذا النمو اللغوى تعمقت فى مخيلة الطفل العربى قدرات أو ملكات التذكر

والتخيل الاسترجاعى، والاكتشاف والتعريف، والتعلم ، والتجريد والقياس والإدراك.

ونستطيع القول فى النهاية إن اللطائف الحكيمة المروية من خلال قول مأثور بأسلوب المثل أو الحكمة من خلال قصة مروية على ألسنة الطير والحيوان، أو قصص خيالى، أو خرافى، تستهدف جميعا عقل الطفل ووجدانه بما يحقق المنفعة والمتعة.

ومن الثابت أن وراء كل مثل هذه الأمثال السابقة وغيرها من الأمثال قصة أو موقف أو طرفة، ومهمة كتاب الطفولة سرد تلك الأمثال الحكيمة فى قالب فنى معاصر يستفيد منه جمهور الطفولة.

الأحاجى والطفل :

تهدف الأحاجى والألغاز فيما تهدف إلى تعليم الأطفال والكبار معاً كيف ينظرون إلى المشكلة من كل جوانبها؟. ثم يحتفظون بعد الكد والتفكير بحس فكاهى، من ثم فقيمة اللغز أو الهدف منه قيمة تعليمية وترويحية بغرض المنفعة والتسلية. كان الإنسان دائما مفتونا بالتشبيه التمثيلى منذ أمد طويل.. لقد أدرك أرسطو وجود علاقة بين اللغز والاستعارة، فاللغز يستخدم الأسلوب الشعرى أو فيما يقارب الشعر مثل القافية والإيقاع والجناس الاستهلالى والتشخيص والرمز والاستعارة، وهذه الامكانيات الأسلوبية فى اللغز تطورت به منذ

القرن السادس الميلادى إلى العصر الحاضر تطوراً كبيراً، فالقياسات التمثيلية المركبة أو التشبيهات التمثيلية أكثر تعقيداً، ومن إدراك عناصر اللغز الأدبى يأتى بالطبع حله.

اللغز لغة :

الألغوزة ما يعمى به من الكلام والجمع ألاغيز، اللغز جحر الضب والفأر واليربوع، وألغز كلامه، وفيه عمى مراده وأضمره على خلاف ما أظهره (٤٨) وفى اللسان: اللغز الكلام وألغز فيه: عمى مراده وأضمره على خلاف ما أظهره واللغز من كلام فشبه معناه، مثل قول الشاعرأشده الفراء.

ولما رأيت النســر عــز ابن دابه   وعشش في وكره جاشت له نفسى

واللغز فى الأصل جحر ملتوٍ للضب والفار واليربوع، والألغاز طرق تلتوى وتشكل على سالكها(٤٩) وفى معجم الأدب ورد اللغز كمصطلح من مصطلحات الأدب بمعنى: صورة الشيئين أو أكثر للتكنية عن كلمة، وكل صورة لأحد الشيئين ترمز لجزء من هذه الكلمة(٥٠) وأفرد علماء اللغة العرب فى كتبهم المعنى اللغوى لمادتى «لغز» ورصيفتها مادة «حجا»، فالحجا، مقصوده العقل والفطنة وأنشد الليث للأعشى:

اذ هى الغــصن مـــيـــالة   تروق عــينى ذى الحـجـا الزائر

والجمع أحجاء. قال ذو الرمة:

ليـــوم من الأيام شـــبـــه طوله   ذو الرأى والاحجاء مقلع الصخر

وكلمة محجية: مخالفة المعنى للفظ، وهى الأحجية والأحجوة، وقد حاجيته محاجاة وحجاء: فاطنته فحجوته.. ولا الأحجية بالحجيا أى بالأغاليط .[٥١] ويعرف الدكتور مجدى وهبة اللغز، والاحجية فيذكر: «اللغز، والأحجية: سؤال يتضمن أوصافا لشيء ما ويطلب من المخاطب تحديد ذلك الشيء بقصد الاختبار الذهنى أو الترفيه، وله أنواع: منها ما يصف الشيء بعبارات غامضة ويطلب معرفة الموصوف عن طريق القياس أو المقارنة، مثال ذلك اللغز الذى حله الملك أوديب حينما سأله الأسفنكس، ما هو الشيء الذى يمشى على أربع فى الفجر واثنين ظهرا وثلاث مساء؟ والجواب هو الإنسان فى فجر حياته وشبابه وشيخوخته، ومنها ما يتضمن التلاعب فى حروف الكلمة بالحذف أو الزيادة مثال ذلك: كلمة إذا أهمل ثانيها كانت اسما لحشرة تخرج طعاما شهيا، وإذا أعجم ثانيها أصبحت علما على شجرة تنتج ثمرا جنيا والجواب النحلة والنخلة.. ويرجع اللغز فى الأدب إلى عهد بعيد. فنجده مستعملا مثلا فى الأساطير الآشورية واليونانية القديمة حيث تصور السنة مثلا شجرة ذات اثنى عشر غصنا، يذبل الواحد تلو الآخر، ثم ينمو من جديد، أو القطعة من نثير الثلج عصفورا ناصع البياض مجردا من الجناحين تزدرده فتاة مقطوعة اليدين (كناية عن الشمس) فيبدو إذن أن الألغاز القديمة

ذات صله بالرموز والمجاز»[٥٢] والألغاز بناءة وليست اختبارات أو قياس البراعة فحسب كما يبدو من الآسلوب التعبيرى لشكل اللغز الظاهرى، بل للألغاز وظيفة أخلاقية وتعليمية شأنها شأن الأنواع الأدبية التى عرضناها فى هذا الفصل، وتأثيرها فى مرحلة الطفولة أقوى من أى مرحلة تالية لها، فهى تحقق راحة نفسية وعلاج سلوكى غير مقصود للميول العدوانية التى تصاحب مرحلة الطفولة المتأخرة، فالطفل عندما يحل اللغز ويفك رموزه اللغوية والذهنية يشعر بنوع من تقدير الذات يضيف للإنسان رغبة أو رغبات جديدة للاكتشاف والاستطلاع، وبالتالى إلى حفز الخيال من الناحية الفنية، أى تدبر الواقع الجمالى للغز.

واللغز من الناحية الأسلوبية كثيرا ما يكون مرتبطا بالشعر الشعبى، فاللغز قد يكون إيقاعيا جدا، أو شعرا مقفى، أو الاثنين معا، والوزن والقافية الشعرية قد يبرزان بتحايل فنى للعناصر المتقابلة أو المتضادة في اللغز، أنظر مثلاً إلى اللغز البسيط والشائع جدا الذى يقول:

(حزر فزر.. ما أقوله.. شىء كثير العيون ولا أنف له) فبالإضافة إلى القافية أو السجع، نلاحظ أن الالحاح بتكرار الكلمات فى السطر الافتتاحى تقليد لكلام الأطفال، وتستخدم لتأكيد التقابل أو التناقض الظاهرى فى السطر التالى. وليس من شك فى أن أرسطو قد فطن

إلى العلاقة الوثيقة بين فكرة اللغز من ناحية والاستعارة البلاغية (أسلوب اللغز) من ناحية أخرى. وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن اللغز ليست مجرد أحجية لفظية تطرح للتسلية والتسرية فقط وإنما يحمل اللغز الوظيفة الأخلاقية التعليمية شأنه شأن الحكايات القصصية بأنواعها والأساطير والأمثال والوصايا والحكم، فاللغز يمكن أن يحل مشكلة ما أو ينمي معلومة أو معلومات، ويؤكد على القيم الاجتماعية والأخلاقية فى المجتمع، كما يقوم اللغز بتحريك الذهن وتنمية الخيال بأسلوب نقدى ساخر، وأهم ما يميز الألغاز هو الأسلوب اللغوى البسيط في غير تعقيد أو إبهام لفظى، لأن الابهام فى اللغز يكون فيما وراء الألفاظ التى يطرحها لا فى الألفاظ ذاتها، وبساطة ألفاظ اللغز وسهولتها تجمع بين الجملة الموجزة والاستعارة التمثيلية القريبة المعنى، وعندما تقترب لغة اللغز من الألفاظ الدارجة فى لغة العامة يسمى باللغز الشعبى.

إن استمتاع الطفل بإلقاء اللغز المنظوم وانطلاق خياله نحو فك رموزه وحله يعدل درجة فائدة النمو اللغوى المكتسب: فى إيقاعه، وإيجازه، ومن ثم يمكن أن يتوسع كتاب الطفولة فى إنشاء الألغاز اللغوية، مما يحقق مكاسب النمو اللغوى والمعرفى عند الطفل وقد أفرد الابشيهى صاحب كتاب المستطرف فصلا للألغاز فى كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) نقتطف منه هذه الألغاز، وأهم ما

يلفت النظر فى أسلوبها اللغوى ومادتها الذهنية هو تحريك خيال الطفل وحفزه لإدراك مغزى اللغز، كما أن الأسلوب الشعرى المنظوم على بساطته يحقق مبدأ الإحساس بجمال اللغة، ومنه فى غزال:

اسم قد هويته.. ظاهر فى صروفه.. فإذا زال ربعه.. زال باقى حروفه

وفى دواة :

ومرضعها ولادها بعد ذبحهم   لهب ما لذ قط لشارب
وفى بطنها السكين والشدى رأسها   وأولادها مذخورة للنوائب

وفى قلم:

وأهيف مذبوح على صدر غير،   يترجم عن ذى منطق وهو أبكم
تراه قصيرا كلما طال عمره   وأضحى بليغا وهو لا يتكلم

وفى كتاب:

وذى أوجه ولكنه غير بائح   بسر وذو الوجهين للسر يظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه   فتسمعها بالعين ما دمت تبصر

وفى الموز:.

ما اسم شىء حسن شكله   تلقاه عند الناس موزونا
تراه معدودا فإن زدته   واواً ونوناً صار موزونا

وفى فيل:

أيما اسم تركيبه من ثلاث   وهو ذو أربع تعالى الإله
حيوان والقلب منه نبات   لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفه ولكن إذا   رمت عكساً يكون لى ثلثاه(٥٣)

واللافت للنظر أن الألغاز والأحاجى - رغم ندرتها - وتوزعها بين متفرقات الكتب لم تغفل الجوانب المحببة للطفل فهى ترتكز فى بعض نماذجها على عالم الحيوان باعتباره عالم اثيرى لدى الأطفال، ويمكن للمبدعين المحدثين إيقاظ هذا اللون التراثى فهو «أنفع» و«وأمتع» من الألغاز العقلية المعقدة وألعاب الحسابات الآلية المستحدثة التى تنمى فى الطفل المادة على حساب إهمال الروح.

خاتمة :

تتبعنا الجذور التراثية لأدبيات الطفولة فى الأدبين الرسمى والشعبى، ووقفنا عند تحديد الأشكال الأدبية التى تتفرع منه كجنس أدبى مستقل يتصل بشجرة الأدب الكبرى، وقد أشرنا إلى الحكايات القصصية فى الأدب العربى القديم ومدى عمق الصلة بين الأدبين الرسمى والشعبى فى هذا الجانب، وعرفنا أن المربيات والجوارى والأمهات والجدات كن يقصصن الحكايات وهن يجلس ومن حولهن الأطفال. وقد وصلت إلينا المأثورات القولية التى كانت تستهل بها الحكايات من مثل: (كان يا ما كان فى سالف العصر والزمان) (كان يا مكان - يا سادة يا كرام وما (يحلى) الكلام، ألا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام). وتوارثت الأجيال العربية الناشئة مادة (محتوى) الحكايات القصصية الموروثة من عنصر الترهيب الذى طبعت عليه وجدانات الأجيال من تأثير سماع الحكايات المخيفة التى تتخللها

عناصر (الجان والشياطين والغيلان ونحوها، وقد تضاءل عنصر الترهيب فى الحكايات القصصية بتطور الحياة العربية وبدأت تميل الحكايات القصصية إلى تحقيق المنفعة بهدف تنمية الخيال وتثقيف الناشئين، كما أشرنا إلى حكايات الحيوان فى الأدب العربى القديم ولنماذج منها فى العصر الجاهلى وفى ظل الحضارة الإسلامية، وتأثيرها الفعال فى الكبار والصغار على السواء وأوضحنا كيف تنوعت حكايات الحيوان فى الأدب العربى الذى اشتمل على الحكايات الخرافية والخيالية المروية على ألسنة الحيوان والطير، واقتراب بعض تلك الحكايات من الشكل الأسطورى، خاصة الحكايات التى اعتمدت فى بنيتها ومضمونها [٥٤] على مقتبسات من العهد القديم الأمر الذى يفسر تأويلات عدة مؤداها أن الأسطورة ذات طابع دينى تتصل بالعقائد. ومهما يكن من شىء فإن الحكايات القصصية بأنواعها ترتبط بالأطفال وتتوجه إليهم بما يحقق النظرة الوظيفية لأدبهم وسط عالمهم الخيالى البرىء، وفى خط موازٍ لتلك النظرة كانت الألغاز والأحاجى تعمل تأثيرها وسحرها فى عقل ووجدان الصغار مثلما يحققه عند أطفالنا الأدب الوعظى الحكيم من خلال الأمثال والوصايا. وأوردنا كذلك الشواهد الشعرية للدلالة على تحديد ملامح صورة الطفل فى التراث الشعرى، وهى غزيرة بمثل غزارة الحكايات القصصية فى الأدب القصصى الوعظى الحكيم،

والمرجح أن الشواهد الشعرية التى أوردناها كفيلة بالرد على الآراء القائلة بأن النتاج الشعرى الموروث والخاص بالطفل غير كاف – بل ويزعم البعض ندرته أو عدمه – وبالتالى فلا يمكن المواضعة المصطلحية لأدب الطفل. وفى الواقع أن ادب الطفل مادته الشعرية والنثرية فى الأدب الرسمى. وفى ضوء ذلك كله يمكننا القول إن أدب الطفل جنس أدبى له أصوله فى التراث العربى والاسلامى ونمط من أنماط التعبير فى الأدب الشعبى للأمة كذلك، أما الأهداف التعليمية (التربوية) والأخلاقية حيث ينشأ ويتوجه فى سياقها فى أغلب الأحوال نتاج أدب الطفل، فليس فى ذلك من نقص أو تقصير، إذا لا يزعم الخبير بخصائص مرحلة الطفولة أن الأوائل لم يفطنوا إلى طبيعة ودرجة الفائدة أو التوجه المنشود فى أدبيات الطفل، ويستدل على ذلك بمقولة الإمام الغزالى:

(كل لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الانكار لتفاوت المعيار)(٥٥).

فالقصص الأخلاقى أو الأدب الحكيم يناسب عقل الطفل ودرجة فهمه وتصوراته، وكذلك النظم التعليمى فى الشعر يحقق الفائدة(٥٦) أما الترنيمة الغنائية فتحقق للطفل المتعة والتسلية وفرحة الحياة، أما الرموز اللغوية والألفاظ الجزلة والثراء الضخم فى المعانى فهى تناسب الآداب الرفيعة التى تستهدف الكبار.

صورة الطفل فى التراث الشعرى العربى :

لقى الطفل العربى من الأوائل أوجه الرعاية والعناية فى الإعداد البدنى والعقلى والوجدانى تنشئة وتربية، ففى الحديث «ريح الولد من الجنة» وقال صلى الله عليه وسلم للحسين والحسن «.. وأنكم من ريحان الجنة»(٥٧)

وسبق أن أفردنا فى سياق عرض المفاهيم اللغوية والاصطلاحية للطفولة أو الناشئة، أنها تعنى إنشاء الصغير حالا فحالا إلي حد التمام، قال عز من قائل: «أو من ينشؤا فى الحلية» الآية ١٨ سورة الزخرف، فالناشىء النشء والنشأة: وإحداث الشىء وتربيته ورعايته جميعا. فالطفل فى ضوء ذلك هو المأخوذ بالحنو والتربية والتعليم والتثقيف من مهده إلى أن يبلغ الحلم.

والأدب نثره وشعره من أخص العوامل الوجدانية فى تهذيب الطفل وترقية مشاعره. والشعر من الأجناس الأدبية التى أسهمت وما تزال فى التربية الوجدانية للطفل العربى، وانطلق فن الشعر بأراجيزه ومقطعاته القصيرة يشكل البناء الروحى فى وجدان الطفل، فالمنظومات الشعرية اتكأت على العامل التعليمى كعامل حاسم يعقب مرحلة الترقيص والتطريب التى كان يتلقاها الأطفال فى مهدهم.

ولا يضير شعر الطفل أنه نظم تعليمى - فى أحد مقاصده - وأن نماذجه فى معظمها تهدف إلى تلقين القيم، وأنه يحمل بين أغراضه التعاليم الدينية وأنها جميعا من الدعائم الإيجابية التى يتشكل من فوقها البناء المتكامل للإنسان الذى نستهدفه، ففى المستقبل بإمكان ذلك الكائن الصغير الذى اكتسب وتذوق قدرا من الشعر التعليمى أو التهذيبى أن يتعامل مع الأدب بمضمونه المتنوع ومستوياته اللغوية والفنية الراقية.

وقد روى عن النبى أنه قال : «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين». ويروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت فى المسجد منبرا ينشد عليه الشعر. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه».. وكتب إلى أبى موسى الأشعرى: «مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأسباب». قال معاوية: «يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب»[٥٨].

ولم تكتف العرب برواية الشعر وإنشاده وتعليمه فى المجالس والمحافل وإنما كانوا كذلك يعلمونه الصبيان تعليما، وكانت توزع الصحف على الصبيان فى المكتب ليتعلموه ويرووه، وفى ظل الاسلام ازداد اهتمام الخلفاء والأمراء والقواد بتعليم الأولاد الشعر وروايته،

وقد أفاض في تفصيل ذلك د. ناصر الأسد في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» ووثق نقوله من مصادر القرون الهجرية الأولى في مظانها الأولى، ومنه مقولة عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده: «إرو لهم الشعر يمجدوا وينجدوا».(٥٩) وبرغم أن أرسطو هو أول من حاول فصل النظرية الجمالية عن النقد الأخلاقي، فإن نظريات العرب القدماء كانت تنسب للشعر الأهداف الأخلاقية والتعليمية بالإضافة إلى الأهداف الأخرى للشعر في طبقته العالية وقيمته الفنية الراقية، ومن قبل أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أهمية الأدب التعليمي وإلى ما قالت به العرب، في هذا الشأن، لما له فائدة في تنمية الطباع والملكات، وهي لا تنمو فيما يرى ابن خلدون إلا بالتلقين والتكرار وعبر عن مذهب الاوائل في تأديب الناشئين وتهذيبهم فيقول: «ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده الأمين فقال: يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليكم مهجة نفسه وثمرة قلبه. فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبه، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، وروه الأشعار وعلمه السنين، وبصره بواقع الكلام وبدئه..»(٦٠) ويؤكد ابن خلدون على أهمية تنمية الملكات اللغوية عند الأطفال إلى أن تتأصل فيهم عن طريق التلقين اللغوى وتكرار الاستعمال، وهي رؤية ثاقبة في مجال النمو اللغوى عند الطفل أثبتتها غير مرة بحوث علم النفس اللغوى المعاصر.

فالملكات اللغوية تصير طبعا عند الطفل والطبع لا ينمو إلا بتكرار الأفعال، وقول ابن خلدون «.. اعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هى ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى، وجودتها ومقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها.. يسمع الصبى استعمال المفردات فى معانيها فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم، هكذا تصير الألسن واللغات من جيل إلى جيل، وتعلمها العجم والأطفال، وهذا معنى ما تقوله العامة من أن اللغة العربية بالطبع أى بالملكة الأولى التى أخذت عنهم، ولم يأخذوها من غيرهم»(٦١). ومنه قول عائشة رضى الله عنها «رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم»(٦٢) وأزعم أن النزعة الدينية فى إطارها التربوى والأخلاقى فى الشعر العربى الموروث، وبخاصة الأشعار القصار الموزونة للصغار قد تمحورت عند اللغة فجاءت النماذج التراثية لشعر الطفل – أو حتى فى الأشعار المكتوبة عنه – فى ألطف معنى وأوجز عبارة وأسهل لفظ وأقصر بحر عروضى.

ومن الأشياء المألوفة أن التطور الاجتماعى والحضارى فى البيئة العربية فى ظل الحضارة الإسلامية أسهم إلى حد كبير فى التشكيل اللغوى وفى الصورة الشعرية كذلك، يقول الجرجانى «فلما ضرب الاسلام بجيرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت

البوادى إلى القرى وفشا الأدب والتظرف اختار الناس من كلام الناس آلينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شىء ذى أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا وألطفها من القلب موقعا.»(٦٣) وفى ضوء ما تقدم فى إمكاننا القول بأن الأغراض الشعرية الكبرى فى الشعر العربى القديم تتنوع وتتشعب فى أطر جديدة بتطور الحضارة الجديدة فى مرحلة إثر مرحلة وبدأ الشاعر يتخلص بالتدريج من آثار القصائد الطوال، وبخاصة القيود التقليدية فى مطلع القصائد من البكاء على الرسوم والتشبيب والنسيب وغيرها، وتحول الشاعر إلى أغراض جديدة واكبت التطور الحضارى - وقتذاك - من مثل : الشعر السياسى، الشعر الدينى (الصوفى والأخلاقى)، والغزل (المتجدد من مثل الغزل بالمذكر) والوصف المتجدد للمنتجات الحضارية كالأدوات والصنائع المستحدثة والشعر التعليمى والوعظى وغيرها.

أما الأساليب اللغوية فهى الوعاء الذى حمل الأفكار والمضامين الجديدة فمالت الأساليب إلى السهولة والايجاز واستعمال المألوف من معطيات البيئة الحضارية الجديدة، وفى أدبيات الطفل لجأ الشعراء إلى استعمال أسلوب الخطاب الحوارى وهم يكتبون قصائدهم فى أولادهم وفى العتاب أو الرثاء وغيرهما من الأساليب المتجددة لغة وفنا. فقد يجرى بعض الشعراء حوارا بينهم وبين أبنائهم ويتحدثون معهم ويبادلونهم الحديث، وهذا أكثر وقعا من

الخطاب الذى من وجهة واحدة، وقد أسماه النقاد بالمراجعة. يقول ابن حجة الحموى: «منهم من سمى هذا النوع السؤال والجواب وهو أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ومحاورة فى الحديث بينه وبين غيره بأوجز عبارة وألطف معنى وأسهل لفظ»(٦٤).

ومنه قول ابن الرومى فى قصيدة له عن ابنه:

أريحانة العينين والأنف والحشا ... ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى
كأنى ما استمتعت منك بضمة ... ولاشمة فى ملعب لك أو مهد (٦٥)

ويلتقط المؤلف هذه المحاورة أو «المراجعة» التى قال بها ابن حجة الحموى، نقلا عن ديوان الصنوبرى، الذى يحاور وحيدته ليلى فيقول

يا ابنتى، أين غبت عن ... رمضان وقد حضر
ولقد كنت أنسنا ... فى عشاياه والبكر
ولقد كنت بعت نو ... م لياليه بالسهر
واعتكاف على الدعا ... ء أو الدرس للسور

ترد عليه ليلى :

يا أبى ليس عند من ... مات علم ولا خبر
لاهلال الصيام ير ... عى ولا الفطر ينتظر
لا فطور ولا سحو ... ر لنا إن دنا السحر
درست يا أبى المحا ... سن وانمحت الصور(٦٦)

ومنه أيضا استعمال الأسلوب الواحد في خطاب شعرى، ومنه ما كتبه أميه بن أبى الصلت[٦٧] يعتب على ابن له فيذكر:

غذوتك مولودا وعلتك يافعا	تعل بما أدنى إليك وتنهل
اذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت	بشكواك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرقت به دونى، وعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك، وإنها	لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى	إليها مدى ما كنت فيك أومل
جعلت جزائى منك جبها وغلظة	كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذا لم ترع حق أبوتى	فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتنى باسم المفند رأيه	وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل
تراه معدا للخلاف كأنه	يرد على أهل الصواب موكل

لقد ألمحنا بذكر الأمثلة السابقة من المقطوعات الشعرية بفرض إظهار الأسلوب التعبيرى في اللغة الشعرية في الكتابة (عن) الطفل، أما الكتابة للطفل بوجه خاص فسيعرض لها هذا المبحث بشيء من التفاصيل لرصد ظاهرة وجود نصوص عربية مدونة حول شعر الطفل بين ثنايا كتب اللغة والأدب، والأغراض الشعرية فى شعرنا العربى لم تترك عالم الطفل دون الحديث عنه، حقا إن حديث القدامى من شعراء العربية عن الأولاد كان يجيء عرضا فى قصائدهم الطوال فى أغلب الأحيان، ولكننا نستطيع أن نلتفت إلى مقطوعات شعرية متفرقة أو أبيات متناثرة في ذخائر التراث، ومن هنا نقدر

على رصد وجود الأبناء في الأغراض الشعرية الكبرى لشعرنا القديم، ومن أهم الأغراض التي تناولها الشعراء في صدد حديثهم عن الولد: الرثاء[٦٨] والعتاب والفخر والحث على العلم والتهذيب بمكارم الأخلاق، فالأولاد عند شعراء العربية القدامى هم قرة العين، ومهجة النفس وطيور جنان الخلد، ولذلك تنوعت تلك الأغراض ومنه سنطوف حول حديقة الأدب الموروث نختار شواهدنا الشعرية، فحاتم الطائي يعمق خاصية الكرم عند غلامه:

أوقـد فـإن الليل ليل قـر والريح ياغـلام ريح صـر
عـل يـرى (نـارك) مـن يمـر أن جلبت ضـيـفـا فـانت حـر

ومنه قول لبيد في الفخر:

فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه فسما إليه كهلها وغلامها

ومنه أيضا هذا البيت الشهير لباشمة بن حزن النهشلي:

وليس يهلك منا سـيـد أبدا إلا افـتلينا غـلامـاً سـيـداً فـينا

وفي جانب الفخر يقول عمر بن كلثوم في معلقته :[٦٩]

ألا يجـهلـن أحـد علينا فنجـهل فـوق جـهل الجـاهلينا
اذا بلغ الرضـيع لنا فطامـا تخـر له الجـبـابر سـاجـدينا

وغير هذ الفخر القبلي، تقول أعرابية في رثاء ابن لها:

تركـتني في الدار لي وحـشـة قـد ذل من ليس له نـاصـر

ومنه أيضا رثاء أعرابى فى ولد له:

سأبكيك ما هبت رياح من الصبا وما طلعت شمس وما ضاء كوكب

ومنه قول الصنوبرى:(٧٠)

كنت القرير العين إذا كنت لى تحلو أحاديثى وأخبارى
وكان شعرى يتغنى به فاستحسنت للنوح أشعارى

وصاحب العقد الفريد في ذلك يذكر: (٧١)

أفرخ جنان الخلد طرت بمهجتى وليس سوى قصر الضريح له وكر

ويقول ابن الرومى:

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لايسد اختلاله مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه أم السمع بعد العين تهدى كما تهدى(٧٢)

ولو انتقلنا لى لون آخر من الألوان الشعرية التى عبر عنها الشعراء القدامى عن وصف أحوالهم تجاه الأبناء، سنجد مثل هذه القصة الشعرية الطريفة فى المستطرف:

أحب بنيتى وودت أنى دفنت بنيتى فى قاع لحد
وما بى أن تهون على لكن مخافة أن تذوق الذل بعدى
فان زوجتها رجلا فقيرا أراها عنده والهم عندى
وان زوجتها رجلا غنيا فيلطم خدها ويسب جدى
سألت الله يأخذها قريبا ولو كانت أحب الناس عندى

ومن خشية الوالد على المستقبل الذى ينتظر ابنته، نلحظ الاهتمام العاقل بالأولاد فى حكمة مقرونة بالسعادة التى تلفهم، وفى ذلك يقول بن الجهم القرشى:

من وراء الشباب شيب حثيث الـ ... ـسير والليل مزعج بنهار
ومع الصحة السقام وحال الـ ... ـعز مقرونة بحال الصغار

ولعل ضادية حطان بن المعلى خير ما عبر به الشعراء القدامى عن منزلة الطفل، فالحنو عليه والرعاية له. يقول حطان بن المعلى:(٧٣).

أنزلنى الدهر على حكمه ... من شامخ عال إلى خفض
وغالنى الدهر بوفر الغنى ... فليس لى مال سوى عرضى
أبكانى الدهر ويا ربما ... أضحكنى الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

وابن الرومى عقد مزاوجة رائعة بين الربيع والابناء فيذكر:

ورياض تخايل الأرض فيها ... خيلاء الفتاة فى الأبراد
منظر معجب، تحية أنف ... ريحها ريح طيب الأولاد(٧٤)

وفى مجال الاعتذار والاستعطاف كتب الحطيئة هذه الأبيات وأرسلها من سجنه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكان قد أمر بسجنه لهجائه أمه وأبيه وامرأته، وفى أبيات جمعت بين الاعتذار والاستعطاف بالأطفال أرسل يقول:(٧٥)

مـــاذا تقــول لأفــراخ بذى مـــرخ حـمـر الحـواصل لا مـاء ولا شـجـر
القـيت كـاسبـهم فى قـعـر مظلمـة فـاغـفـر عليك سـلام الله يا عـمـر
أنت الأمـــام الذى من صـــاحـبــه ألقت إليك مـقـاليد النهى البـشـر
مـــا آثروك بهـــا إذا قـدمـوك لهـــا لا بل لأنفـسـهم قـد كـانت الأثر

ومن الذين عبروا من ائتلاف العلاقة بين الشعر والطفل: ابن رشيق القيروانى فى أبيات تقول:

الشـــعـــر شىء حـــسـن لـيـس لـه مـن حـــرج
فـــعـــلمــــوا أولادكـم عـــقـــار طب المهج(٧٦)

وتكاد تجمع المنظومة الشعرية السابقة وظائف الشعر الذى نستهدف تعميق مفاهيمه وتوجيهاته لاستثارة العوامل الوجدانية عند الأطفال فالبيت الأخير من المقطوعة القائل فى بساطة واضحة:

فـــعـــلمــــوا أولادكـم عـــقـــار طب المهج

نلاحظ أنه يسلمنا فى رفق إلى تحقيق النظرية الوظيفية من أدب الطفل: تعلم وتذوق وبناء للوجدان، على جانب آخر من الأغراض الشعرية المستحدثة المنظومات التعليمية التى أحسن بها الشاعر العربى القديم فى إطار التحول الاجتماعى والحضارى العربى، ويقول الشاعر مشيرا إلى الأدوات (المحلات)، وسميت المحلات لأنها من كانت مع الإنسان حيثما حل وارتحل:

ان المحـلات ست فـاسـمـعن لهـا الزند والدلو والسكين والفـــأس
والقدر والزق لا تبغى بها عوضا فحيث ما كن كان الناس والبأس(٧٧)

ومنه ما يحمل العظة مثل قول بديع الزمان الهمذاني:

ويحك هذا الزمـــــان زور   فــلا يغــــرنك الغـــرور
لا تلتـــــزم حـــاله ولكن   در بالليـــالي كـمـــا تدور(٧٨)

ومنه أيضا يقول الصاحب بن عباد:

الـزم الـصـــــــــدق انـه   حـــــــيلة العلم والأدب
كـــــــذب المرء شـــــــينه   لعن الله من كــــــذب (٧٩)

وتوسع القدماء من رجاز وشعراء وبلغاء في نظم العظات والنصائح في أسلوب شعري يحمل القيم الأخلاقية في اطار الأدب التهذيبي يقول الشاعر:(٨٠)

يا مـــغــــرقـــا في أدب الدرس   أفــــضل منه أدب النفس(٨١)

وقديما وصى (يعرب قحطان) أولاد فقال:

بني أبوكم لم يعــد عــمــــا   به وصــــاه قـــحطان بن هود
فـــوصـــاكم بما وصى أباكم   أبوه عن أبيــــه عن الجــــدود
أذيعــــوا العلم ثم تعلمــــوه   فـمــا ذو العلم كـالكل البليـد

ومنه قول طرفة بن العبد:

اذا كنت في حـاجـة مـرسـلا   فـارسل حكيـمـا ولا توصـه
وإذا نـاصح منك يومــــا دنا   فـــلا تنأ عنه ولا تقــصـــه
ولا تذكـــر الدهر في مـــجلس   حـديثـا إذا أنت لم تحـصـه

ومنه نصيحة سيفان بن عيينة لولده:

بني، ان البـــر شيء هـين   وجـــه طليق وكــــلام لين

أما عبده الطيب فيعمق في وصيته لأولاده الحكمة فيذكر:

أوصـــيكم تقـــوى الإله فـــإنه　　　يعطى الرغـائب من يشـاء ويمنع

ومنه أيضا وصية «سبيعة بنت الأحب بن عبلان» لابن لها تعظم عليه حرمة مكة فتذكر وهى تنصحه بتلك الأبيات:

ابـنـى لا يـظـلـم بمـكـة　　　لا الصـغـيـر ولا الكبـيـر
واحـفظ مـحـارمـهـا　　　بنى ولا يغـرنك الغـرور
ابـنـى مـن يـظـلـم بمـكـة　　　يلـق اطـراف الشـرور

وفي الحث على الجد بهدف المجد يقول عمر بن الأهتم:

وان المجـد أولـه وعـور　　　ومـصـدر غـبـه كـرم وخـيـر
وإنك لن تنـال المجـد حـتى　　　تجود بما يضن به الضمير(٨٢)

ومحبة الأطفال والعطف عليهم والحرص على حاضرهم وتأمين مستقبلهم من أهم الجوانب التى التفت إليها كذلك ديوان الشعر العربي، وقد كشفت«ضادية» حطان بن المعلى، «ولامية» أمية بن الصلت، وقصائد الرثاء وغيرها من الأغراض التى تناولت الأطفال عن أهتمام بالغ بالأبناء في ديوان الشعر العربي، وبين يدى المؤلف خاصية أخرى يطرحها في هذا المجال وهي إظهار الشاعر العربي المسلم لمفهوم المحبة والحنو والعطف على «البنات» لأن البنات أحوج من الصبيان إلى الرعاية والعطف نظرا لأنهن خلقن بحاجة متصلة إلى الحماية والرقة والحنان من الأبوين بل ومن المحيطين بهن جميعا.

قال عز من قائل «وليخش الذين الذين تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله، وليقولوا قولا سديدا».

وقد غنى الآباء من الشعراء العرب للبنات، يقول الشاعر الاسلامى اسحاق بن خلف فى مقطوعة طريفة:

لولا أميمة لم اجزع من العدم ولم أقاس الدجى فى حندس الظلم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى أن اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوما أن يلم بها فيهتك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتى، وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم
اخشى فظاظة عم، أو جفاء أخ وكنت أبقى عليها من أذى الكلم(٨٣)

وعندما كتب قطرى بن الفجاءة إلى ابن خلدون القنائى يستدعيه لمشاركته قتال رجال الخوارج للدولة الأموية، اعتذر إليه فى الأبيات التالية فيذكر[٨٤]:

لقد زاد الحياة إلىّ حبا بناتى، أنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى وأن يشربن رتقا بعد صافى
وان يعرين إن كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سومت مهرى وفى الرحمن للضعفاء كافى
أبانا، من لنا إن غبت عنا وصار الحي بعدك فى اختلاف

وقال أعرابى لعمر ابن هبيرة الغزارى يستعطفه رعاية أولاده الفقراء من فيض ثروته فيذكر:

أصلحك الله قل ما بيدى ... فما أطيق العيال إذا كثروا
رجوك للدهر أن تكون لهم ... غيث سحاب إن خانهم مطر(٨٥)

وفى معنى ما قصدنا أنشد الرياشى هذا البيت لأعرابى:

زينها الله في الفؤاد كما ... زين فى عين والد ولد

ومن الصور الشعرية الطريفة التى أنشدها أبو فرعون الساسى فى أطفاله يقول مرتجزا وهو يصور البؤس الذى يعيشونه:

وصبية مثل صغار الذر ... جاءهم البرد وهو بشر
بغير قميص وبغير أزر ... وبعضهم ملتصق بصدرى
وبعضهم ملتصق بظهرى ... وبعضهم منحجر بحجرى
إذا بكوا عللتهم بالفجر ... حتى إذا لاح عمود الفجر
ولاحت الشمس خرجت أسرى ... عنهم وحلوا أصول الجدر

كأنهم خنافس فى جحر(٨٦)

وقالت أم ثواب الهزلية في ولد لها:

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه ... أم الطعام ترى فى ريشة زغبا

وليس أدق مما صور الشاعر العربى فى ضرورة وفاء الأبناء للآباء، وعن دوام الصلة وفعل الخير يقول ابو رباط لابنه:(٨٧)

رأيت (رباط) حين تم شبابه ... وولى شباب ليس فى بره عتب
إذا كان أولاد الرجال مرارة ... فأنت الحلال الحلو والبارد العذب
لنا جانب منه أنيق وجانب ... شديد على الأعداء مركبه صعب
وتأخذه عند المكارم هزة ... كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

ولم ينس الشاعر العربى الإشارة إلى الحكاية القصصية حول الطير والحيوان فى مناسبات عديدة، وفى كتب الأمالى للقالى، وأغانى الأصفهانى، والبيان والتبيين للجاحظ، وحياة الحيوان للدميرى وغيرها من كتب اللغة والأدب طرائف ونوادر وألغاز تحرك خيال الطفل بخاصة، والإنسان بعامة، ومنه أبيات أنشدها العباس بن الأحنف فى مجلس الرشيديقصها الأصمعي فيذكر:(٨٨)

لو أن صـــــورة من أهوى ممثلة وصرتى لاجتمعنا فى الجدار معا
إذا تأملتنا ألفـيـتنا عـجـبـا إلفان ما افترقنا يوما ولا اجتمعا

وقيل للأصمعي ما معنى قول أمية بن أبى الصلت:

ومـا ذاك إلا الديك شـارب خـمـرة نديم الغـراب لا يمل الحـوانيـا
فلما استقل الصبح نادى بصوته ألا من غــرب هل رددت ردائيــا

فقال الأصمعي:(إن العرب كانت تزعم أن الديك فى الزمان الأول كان ذا جناح يطير فى الجو وأن الغراب كان ذا جناح كجناح الديك لا يطير به، وإنهما تنادما ذات ليلة فى حانة يشربان فنفد شرابهما فقال الغراب للديك: لو أعرتنى جناحك لآتيتك بشراب، فأعاره جناحه فطار ولم يرجع، فزعموا أن الديك إنما يصيح عند الفجر استدعاء لجناحه من الغراب)(٨٩). ومن الطرائف الشعرية ذات العلاقة بعالم الطفل هذا الموقف النادر الذى يحكيه الشاعر العربى الحطيئة فى حوارية بينه وبين ولده الصغير، من قصيدته الشهيرة التى مطلعها:

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

فالحطيئة وأولاده لم يذوقوا طعاما منذ ثلاث ليال، وقد عصب بطنه من الجوع، وحينما رأى شبحا ضعيفا من بعيد كثر همه وحزنه:

رأى شبحا وسط الظلام فراعه فلما رأى ضيفا تشمر واهتما
وقال هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تاالليلة اللحما

ثم يأتى موقف ابنه على هذا النحو:

فقال ابنه لما رآه بحيرة آيا أبت أذبحنى ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم على الذى ترى يظن لنا مالا فيوسعنا ذما

ويهم الحطيئة بذبح ولده، كأنه يسترفد قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لولا أن رأى قطيعا من الأتن الوحشية عن بعد كأنما أرسلتها العناية الإلهية فداء للصبى الصغير).[٩٠]

ولم تغفل الحضارة الاسلامية أهمية المنظومات الشعرية التربوية للطفل. يقول ابن سينا فى كتابه السياسة:(من الضرورى البدء بتهذيب الطفل وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام). وما رواه الجاحظ فى البيان والتبين:(.. علموا أولادكم العوم والفروسية، ورووهم ما سار من المثل وما حسن من الشعر.. نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم). ولحث الطفل العربى على اتقان ملكة من

ملكات وصنعة من الصناعات قال المهلب لبنيه: (يا بنى لا يقعدن أحدكم السوق، فإن كنتم قاعلين فإلى رراد أو سراج أو رواق)[٩١].

وكانت مظاهر الحفاوة بالطفل العربى تبدو جلية فى الاتجاه الوجدانى بدرجة تفوق الاتجاه العقلى إلى حد ما، ومن ذلك نلحظ دوران النظرية التربوية الاسلامية حول الاطار الوجدانى فى العقيدة والأخلاق في منهج يقترب من الاتجاه العقلى، والأدب ديوان العرب عمق ذلك المفهوم بتأثيراته الوجدانية، ومنه أن كان الطفل يذهب إلى المكتبات (الكتاب) وسنه قريب من السابعة ثم يقضى ما يقرب من ثلاث سنوات أو أربع فى استظهار القرآن والوقوف على أصول الدين وتعلم بعض مبادىء اللغة والشعر.. وقد لاحظ «ابن جبير» أن تمارين الكتابة التى كانت تعطى للتلاميذ كانت من الشعر.

يقول ابن سينا فى أرجوزة طويلة حول الطفل:

ناغــه بالأصــوات فى تعلم كــيــمــا تدربه على التكلم
وامنعه أن يقصد أو أن يسألا حـتى تراه يفعة قد اعتلى

والارجوزة غاصة بالنصائح المقصودة لتهذيب الأبناء وغرس الخصال الحميدة فى نفوسهم وهى على طولها (تقع فى ألف وثلاثمائة وست وعشرين بيتا) تعمق العادات المحمودة والآداب السليمة عند الطفل بأسلوب تعليمى موجه.. كأنما عبر الفلاسفة عن ترجمتهم للنظرية الاسلامية فى التربية والتى تتمحور حول العقيدة

والأخلاق وفى الحديث ما يوافق تلك الرؤية الدينية والأخلاقية.

«وإنما الشعر كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح»[٩٢] وفى ذلك قال المتنبى»:

وما الحسن فى وجه الفتى وشرفا له   إذا لم يكن فى فعله والخلائق

وقد حرص العرب على تنمية الخصال الحميدة فى الطفل كالشجاعة والكرم والعطف والشهادة والنخوة وغيرها من الخصائص الإيجابية فى الشخصية العربية، وذلك عن طريق أشعارهم وأمثالهم وحكمهم وقصصهم. والإمام الغزالى خير من عبر عن الفلسفة الأخلاقية فى الإسلام، فكتابه «إحياء علوم الدين»، ورسالته المعنونة «أيها الولد المحب» وكتاباته المتفرقة تعد ترجمة للفكرة الدينية والأخلاقية الدائرة حول الأدب بمعناه التهذيبى ومعناه الفنى. يقول الغزالى:

«لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ويستشهد هنا بالحديث النبوى: حسنوا أخلاقكم» و«مانحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن»[٩٣].

ويكشف الغزالى عن موقفه من الأنواع الأدبية فى إطار هجومه على المرذول والماجن ونحوهما من فنون الأدب، فيحذر من أشعار الهوى والعشق والمجون وأهله عندما قال «ويحفظ (أى يبعد الطفل) من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله»[٩٤].

وفى ضوء ذلك قال د. طه حسين:

(.. أنا أعلم حق العلم أن من المتقدمين من كان يعدل عن رواية الفاحش من الشعر سواء أكان فحشه مؤذيا للعاطفة الدينية أو للأخلاق والأدب).

ولا يضير الطفل أو يقلل من طبيعة الأنواع الأدبية الموجهة له أنها تقوم فى أساسها على ركيزة روحية (دينية وأخلاقية) وبأسلوب تهذيبى فيه التثقيف والتعليم أكثر مما فيه من فنية عالية. ويعبر البوصيرى (٦٠٨– ٦٩٥هـ) عن أثر التنشئة على طبع الإنسان من زمن الطفل فى مرحلته الأولى، من هذا البيت الشهير الذى أورده مطولته (البردة):

والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وإذا كان فن الرجز قد نشأ فى أحد مقاصده لهدف لغوى فى العصر الجاهلى، فإن العصر العباسى توسع فى استعمال البحور الخفيفة والقصيرة والمجزوءة كالمجتث والمقتضب والمضارع، بل واستحدث العباسيون المزدوج والمسمط أما المزدوج فلعل أول من استخدمه بشار بن برد، وأخذ الشعراء يستخدمونه من حوله ومن بعده فى الشعر التعليمى كما نرى فى قصيدة بشر بن المعتمر التى رواها الجاحظ فى كتاب الحيوان[٩٥].. وسبق أن ذكرنا فى تتبع نشأة وأغراض الأشعار القصار فى الأدب العربى أن كانت العرب تقول

الرجز فى الحرب والحداء والمفاخرة وما جرى هذا المجرى، فتأتى من آيات يسيرة، فكان الأغلب العجلى أول من قصد الرجز، ثم سلك الناس بعده طريقته[٩٦] وقد استتبع التقاء العرب بالثقافات الهندية والفارسية واليونانية في زمن الحضارة الاسلامية الزاهرة، التجديد في استعمال البحور الشعرية وبالتالى الأغراض التى كان يقصد إليها الرجاز الشعراء وظهر الميل إلى استخدام الأوزان المجزوءة بتأثير ازدهار الموسيقى والغناء فى الأمصار فعرفوا المخمس والمزدوج.

وقد اختار اصحاب الشعر التعليمى القالب الأخير لشعرهم، وكأنما أغرتهم وفرة الموسيقى فيه، حتى «تتلاقى وما فى معانيهم من جفاف معرفة الحكمة.. أما الأسلوب فهو أسلوب مبسط استطاعوا بذوقهم الحضارى الرقيق أن يحدثوه. فإذا لغته أشد ما تكون نقاء».

وهذا لم يمنع ندرة الاستعمال لبعض تلك البحور منه قول مسلم بن الوليد:[٩٧].

يا أيهـــا المعــــمـــــود قـــد شــفك الصـــدود

وله أيضا من تلك الأوزان المقتضبة:

نبـــا بك الوســـــاد وامــــتنع الرقـــــاد

وتحقيقا للفائدة من استعمال الرجاز الشعراء للبحور القصيرة فى عالم الشعر التعليمى وما يتضمنه من معارف وعظات وأمثال وحكم للناشئين، وبما فى هذه البحور الخفيفة من إيقاع موسيقى ولغة

موزونة سهلة - يوافقان عقل الطفل وادراكه - نظم ابان بن عبد الحميد اللاحقي كليلة ودمنة شعراً يقول في مقدمته:

هذا كتاب أدب ومحنه ... وهو الذى يدعى كليلةودمنة
فيه ضلالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند
فوضعوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم

كما تضمن كتاب الأوراق للصولى منظومات شعرية طويلة تشمل الأدب الوعظى أو الأدب الحكيم من أمثال ووصايا وعظات وتأديبات، من التى كتبها ابان بن عبد الحميد ترجمة لكليلة ودمنه شعراً(٩٨).

ولم يكن ابن اللاحقى وحده، هو الذى نظم كليلة ودمنه شعرا، بل اقتفى أثره شعراء عديدون منهم الشاعر المصرى الأسعد بن مماتي(١٦٠هـ) وقبل ذلك بنحو قرن محمد بن صالح العباسى المعروف بابن الهبارية(٥٠٤هـ) صاحب كتاب «نتائج الفطنة فى نظم كلية ودمنة»، ورصيفه الصادح والباغم الذى سار فى تأليفه على أسلوب كليلة ودمنة يقول ابن الهبارية فى نتائج الفطنة وهو يرتجز:

هذا كتاب حسن ... تحار فيه الفطن
قضيت فيه مدة ... عشر سنين عده
بيوته الفان ... جميعها معان(٩٩)

جانب آخر له أهميته للطفل وهو توظيف مادة الطير والحيوان على ألسنة الشعراء، فمن الضرورى الإشارة إلى أهمية ولع الطفل بالحيوان والطير ولذلك تناثرت فى ديوان الشعر العربى منظومات

شعرية تصف الطيور والحيوانات على نحو ما عبر عن ذلك في رحلات الصيد والطرديات، ووصف عجائب المخلوقات العديد من شعراء العربية القدامى.

وعلى أية حال فقد تناول د. طه حسين في الجزء الثاني من كتابه «حديث الأربعاء» ريادة ابان بن عبد الحميد اللاحقي لفن الشعر التعليمي فيذكر: «أنه ابتكر في الأدب العربي فنا لم يتعاطه أحد من قبله، وهو فن الشعر التعليمي وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية، ولاسيما في العصور المتحضرة»(١٠٠).

والعبارة التي قال بها د، طه حسين لا يمكن قبولها على اطلاقها لأنه من الظلم الواضح أن نصدر أحكامنا على المنظوم الشعري التعليمي بنفس الأحكام التي نصدرها على الشعر في أغراضه الأخرى أو في طبقته العالية بمضمونه وبنيته اللغوية.

كما أن العصور المتحضرة في أزهى فترات الحضارات الإنسانية ازدهر خلالها الشعر التعليمي مثل الحضارة الهندية والفرعونية واليونانية، فهي لا تقصد إلى الجمال الفني في الشعر بقدر ما تهدف إلى التعليم والتهذيب والتسلية، والطفل بطبيعته يميل إلى المنظومات القصيرة يرددها ويفيد منها كما أفاد منها د. طه حسين - ذاته - وهو فتى على حد قوله حول تلك المنظومات فيذكر:(وكنا نروى هذه المنظومات التي حفظناها في الأزهر أيام الصبا..)(١٠١) لقد كان

الشعر التعليمي هو الوعاء المفضل للعلوم على نحو ما هو معروف، كما أنه استشهد به لاثبات المعانى)[١٠٢] ولو عدنا إلى إبان اللاحقى باعتباره مخترع الفن التعليمي حينما نظم كليلة ودمنة بالشعر، وليسهل على هؤلاء الأطفال المتعة من نظم الحكايات والإفادة من مضامينها فى أسلوب تعليمي سهل، ألا وهو الالتفات إلى حكايات الحيوان والطير وعجائب المخلوقات، وهى من المخلوقات المحببة لعالم الطفل والمحفزة لخياله، يقول ابان بن عبد الحميد وهو يستهل نظمه لكليلة ودمنة:

هذا كتاب أدب ومحنة ... وهو الذى يدعى مليلة ودمنة
فيه ضلالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند
فوضعوا أداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله ... والسخفاء يشتهون هزله
وهو على ذلك يسير الحفظ ... لذ على اللسان عند اللفظ

وانظر كيف افتتح باب الأسد والثور:

وإن من كان دنىء النفس ... يرضى من الأرفع بالأخس
كمثل الكلب الشقى البائس ... يفرح بالعظم العتيق اليابس
وإن أهل الفضل لا يرضيهم ... شىء إذا ما كان لا يغنيهم
كالأسد الذى يصيد الأرنبا ... ثم يرى العير المجد هربا
فيرسل الأرنب من أظفاره ... ويتبع العير على أدباره
والكلب من دقته ترضيه ... بلقمة نقذفها فى فيه

وفى تاريخ الأدب العربى من الأمثال والحكم والعظات والنصائح الشعرية التى سارت فى خط مواز لمثيلاتها فى الفنون النثرية، فمنها

مـا نظمـه الرجـاز والشـعـراء لسـائر المتلقين(صـغـارا وكـبـارا) ومنه اختص به احدهما دون الآخر.

ومنه قول محمود الوراق:

رأيت صـــلاح المرء يـصلح أهله ويعـديهم داء الفـسـاد إذا فـسـد
يعظم فى الدنيـا بفـضـل صـلاحـه ويحـفظ بعد الموت فى الأهل والولد

ومن شعر اليزيدى:

إذا نكبـات الدهر لم تعظ الفـتى وأفـزع منهـا لم تعظه عـواذله
ومـن لـم يـؤدبـه أبـوه وأمـــــه تـؤدبه روعـــات الردى وزلازلـه
فـدع عنك مـا لا تسـتطيع ولا تطع هـواك ولا يـغلب بـحـــقك بـاطله

وجـادت قـريحـة المتنبى بالأمـثـال الشـعـرية والحكم التى أودعـهـا شعره ومنها قوله:

ذو العـقل يشـقى فى النعـيم بعـقله وأخـو الجـهـالة فـى الشـقـاوة ينعم

وهذا جانب آخر نكمل به ملامح صورة الطفل فى الشعر العربى الموروث، وهو وصف للحظات السـفـر أو الاغـتـراب عن الطفل، ومنه تذكر كاتب الأمير المنصور بن عـامر وهو الشـاعر ابو عمرو بن دراج القسطلى إذا يذكر ابنه وقد تركه لحظة سفره:(١٠٣).

ابنى لا تذهب بنفـسك حـسـرة عن غول رحلى منجدا أو مـغوراً
فلئن تركت الليل فـوقى راجـيـا فلقـد لقـيت الصـبح بعدك أزهراً
وحللت أرضـا بدلت حـصـاؤها ذهـبــاً يرف لناظرى جـــوهرا

ومنه لابن دراج أيضـا يصف فراقه لزوجه وابنه فـيذكر فى لحظة

الوداع:(١٠٤).

ولما تدانت للوداع وقد فغا — بصيرى منها أنه وزفير
تناشدنى عهد المودة والهوى — وفى المهد مبغوم النداء صغير
عبى بمرجوع الخطاب، ولفظه — بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت — له أذرع محفوفة ونحور

ومنه أيضا قوله الأعشى فى حوارية مع ابنته وهو على سفر:(١٠٥).

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا — يا رب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى — نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

كما أحس العربى ببصريته بفرحة الطفل للقمر إذا ما نظر إليه كأنما تنعكس صفحة وجه الطفل الجميل (حادر) على بدر السماء، فالصبى عندما يرى القمر يهش له، وفى ذلك يقول الشاعر(١٠٦).

وحادر قال لى قولا قنعت به — لو كنت أعلم أنى يطلع القمر

وفى استنفار الناشئة للجهاد والقيادة، كانت صورة مضيئة فى هذا الجانب من أغراض الشعراء ومنه قول لبيد:(١٠٧).

تطير عدائد الاشتراك شفعا — ووترا والزعامة للغلام

ومنه أنشد العباسى:(١٠٨)

قلل الأطفال آل بكر يجيبوا — من دعاهم للحرب عند البراز

وبعد، إن التوفر على إيرادنا للشواهد التراثية السابقة من ديوان

الشعر العربى فى الأغراض المتنوعة (عن) الطفل بهدف تأكيد وجود شخصية «الطفل» فى نسيج الشعر العربى، رجزه وقصيده، ولا يزعم المؤلف إنه أتى بحصر واف لكافة الأشعار التراثية عن الطفل لندرة المصادر والمراجع، بل عدمها - مستقلة - فى مجال ديوان الطفل العربى، وإنما اقتضى ذلك الاجتهاد فى استقراء متفرقات أمهات كتب اللغة والأدب والأخبار لاستخراج البيت أو البيتين أو المقطوعة فى أحسن الأحوال وبهدف التنظير النقدى لأدبيات الطفولة.

وليس من شك فى أن صورة الطفل فى التراث الشعرى العربى حظيت على نحو ما بمكانه لا بأس بها عند الرجاز والشعراء، وأزعم أنها مكانه إيجابية فى أغلبها (باستثناء) أشعار الغزل الشاذ فى الغلمان، وهو كلون طارىء اندرج تحت فن الغزل بنوعية العفيف والصريح، ولكن هذا الغزل الشاذ أو الغزل المذكر فى الصبيان والغلمان طمست أغراضه من حياة الجماعة العربية وإن بقيت آثاره تنعكس بالسلب على حياة بعض الصبية الأطفال فى طفولتهم المتأخرة وهم يعملون فى بيوت الخلفاء والأمراء والقواد والأثرياء فى أخريات العصر العباسى وعصور الدويلات والطوائف.

ومما يرويه فى ذلك صاحب الأغانى: «دخل على ابن وهب يوما ومعه صاحب له، غلامان أمردان فقالا له لقد تحاكمنا إليك أينا أجمل

وجها وأحسن جسما: وجعلنا لك أجر حكمك أن تختار أينا حكمت له فـ.. ثم مال على الآخر ثم قال:

رئمـان جـاءا.. فـحكمـانى لاحكم قـاض ولا أمـيـر
هذا كشمس الضحى جمالا وذا كـبـدر الدجى المنيـر
فكان منى ومن قـرينى إليـهـمـا وثبـة المغـيـر
فـمن رأى حـاكمـا كحكمى أعظم جـورا بلا نكيـر(١٠٩)

ومنه أيضا ما يرويه أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى:

كان أبو محمد التيمى يهوى غلاما، وكان الغلام يهوى جارية فكان بها مشغولا عنه فقال التيمى فى ذلك:

ويلى على أغـيـد ممكور وسـاحـر ليس بمسـحـور
تؤثره الحـور علينا كـمـا نؤثره نحن على الحـور(١١٠)

وممن تغزلوا بالغلمان أيضا مطيع بن أياس

وليـس يـعـتـم إلا سـكـران مـع سـكـران
يسـقـيـه كـلام غـلام كـأنه غـصـنان(١١١)

ومنه قول البحترى يتغزل فى غلام:(١١٢)

نبـتـت لحـيـة (شـقـر) أن شـقـيت النفس بعـدى
حلقت، كـيـف اتتـه قـبل أن ينجـز وعـدى

وعلى هذا النحو الشاذتغزل الشعراء فى الغلمان، ولم يكتب لمثل هذا الغرض الذيوع والاستمرار، واتجه الشعراء - يومئذ - إلى

الغزل بنوعيه العفيف والصريح، وارتبط الأخير في أغلب نماذجه بالخمريات، أما الغزل المذكر في غلمان القصور وبيوت الأثرياء فانقطع سبيله وانطفأ شعاعه.

الطفل شاعرا:

والاطار الذى نستطيع أن نكمل به صورة الطفل فى التراث الشعرى العربى هو الالتفات إلى شاعرية الأطفال أنفسهم، من خلال ذكر أمثلة لنظمهم الشعرى ومن نافلة القول التأكيد مرة أخرى على اهتمام الأطفال العرب وشغفهم بحضور مجالس الأدب وحلقات الرواة ومن ثم تكونت لديهم ملكة التذوق الأدبى، ونظم بعضهم الشعر فى سن صغيرة، ومن بين هؤلاء الصغار يومئذ الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد.. فيما نسب إليه الرواة أنه نجح فى نظم الشعر فى سن مبكرة وقد أورد الدميرى المصرى صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى رواية تتصل بطرفة بن العبد وخروجه مع عمه على سفر، فاستهواه صيد (القبرة)[١١٣].

وعندما عاد قال أول أشعاره فى القنابر، يستعيد ويصف التقاط القنابر للحب فيذكر:

يا لك من قبرة بمعمر	قد رفع الفخ فماذا تحذرى
قد ذهب الصياد عنك فابشرى	خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى	لابد يوما أن تصادى فاصبرى

وإذا قرأنا أخبار كعب بن زهير فى الأغانى لوجدنا كيف اهتم الآباء بتعليم الأبناء الشعر وإنشاده وإجازته وبالتالى إذاعته على الناس. وزهير أجاز غير مرة أبيات شعرية لابنه كعبا، بعد دربه وتثقيف معه، فكان يبدأ بانشاء نصف البيت (صدره) ليكمل عجزه، أى يطلب منه أن يكمل البيت، ومن ذلك ما ينسبه الرواة إلى أول قصيدة أنشدها كعب بن زهير وهو فتى، ومنها هذا البيت:

أبيت فلا أهجو الصديق ومن يبع بعرض أبيه فى المعاشر ينفق(١١٤)

وأخبار لبيد بن ربيعة فى الأغانى - كذلك - تدلنا على مدى مقدرته على إنشاء الشعر صغيرا، وقد بدأ ابن ربيعة يقرض الشعر فى اطار الفخر القبلى فى تعصب لاعمامه من بنى عامر، فيهجو أخواله من بنى عبس قائلا:

نحن بنى أم البنين الأربعه سيوف حز وجفان مترعه
نحن خيار عامر بن صعصعه الضاربون السهام تحت الخيضعه
والمطعون الجفنه المدعدعه مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه(١١٥)

وها هى حوارية أدبية طريفة دارت فى صدر الاسلام بأحد مجالس العرب وكان الرسول(ص) قد وفد معه صاحبه أبو بكر على مجلس من مجالس العرب فأخذ الصديق يسأل الحضور فى أنسابهم وبطونهم، فلما انتهى من ذلك قام إليه (عقل بن حنظله) وهو يومئذ غلام صغير وأنشد:

إن على سائلنا أن نسأله والعبد لا تعرفه أو نحمله

وأخذ الصبى يستفسره ويحاوره، حتى أحس أبو بكر بالدهشة من بلاغة الصبى وبيانه وحسن محاورته فرجع إلى رسول الله والغلام ينشد:

وافق در السيل در يدفعه   يهضيه حينا وحينا يصدعه

فتبسم الرسول(ص) وقال أبو بكر عبارته المشهورة التى ضربت مثلا من بعد:«أن البلاء موكل بالمنطق» ومن اللافت للنظر أن عقل بن حنظلة عمر طويلا فأدرك ولاية معاوية ووفد عليه فسأله يوما: بم أدركت هذا العلم؟ قال: بلسان سئول وقلب عقول(١١٦).

وظهرت ملامح شاعرية أبى الطيب المتنبى وهو فى عمر الصبا، وأول شعر نظمه ارتجالا وقوله وهو صبى:

بأبى من وددته فافترقنا   وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولا فلما التقينا   كان تسليمه على وداعا

وقال فى صباه وهو فى المكتب (الكتاب) يرد على المتعجب من شعره المجتمع على رأسه:

لا تحسن الوفرة حتى ترى   منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة   بعليها من كل وافى السبال

وقال أيضا فى صباه، وقد أهدى إليه عبيد الله بن خلكان هديه فيها سمك ونحوه، فقال ارتجالا:

هدية ما رأيت مهديها إلا   رأيت العباد فى رجل
أقل ما فى أقلها سمك   يسبح فى بركة من العسل
كيف أكافىء على أجل يد   ومن لايرى أنها يد قبلى(١١٧)

فى ضوء ذلك يمكن القول إن أمارات الموهبة الشرية، تظهر عند الشاعر أى شاعر، فى سن مبكرة، ولكن تدوين شعر مرحلة الطفولة عند معظمهم تخفيه عاديات الزمن، فضلا عن عدم اكتراث الشعراء أنفسهم فى مرحلة صباهم بتدوين محاولتهم الأولى، أما ما تنقله الروايات المدونة من شعر مرحلة الطفولة فدليل على توثيقه وتدوينه وصحة نسبه تبعا لتتبع أخبار روايته، ولقد رأينا مخايل الموهبة الشعرية عند الشاعر العباسى ابن المعتز تبدو فى سن صغيرة، ومن شعره فى مرحلة طفولته نعرض هذه النماذج(١١٨):

لا تمنعن العلم طالبه ... فسواك أيضا عنده خبر
كم من رياض لا أنيس بها ... هجرت لأن طريقها وعر

وقال أيضا فى صباه:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

ومنه أيضا قوله وهو طفل صغير لم يبلغ سن الشباب:

ومن شر أيام الفتى بذل وجهه ... إلى غير من حقت عليه الصنائع
متى يدرك الإحساس من لم تكن له ... إلى طلب الإحسان نفس تنازع

وقبيل نهاية مرحلة الصبا وعمر (عبد الله بن المعتز) يومئذ ثلاث عشرة سنة كتب إلى مؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقى منظومة شعرية

يقول فيها:

أصبحت يا بن سعيد حزت مكرمة ... عنها بقصر من يحفى وينتعل
وسربلتنى حكمة قد هذبت شيمى ... وأحجت غرب ذهنى فهو مشتعل
أكون إن شئت قسا فى خطابته ... أو حارثا وهو يوم الفخر مرتجل
وإن أشأ فكزيد فى فرائضه ... أو مثل نعمان ما ضاقت به الحيل
أو الخليل عروضيا أخا فطن ... أو الكسائى نحويا له علل

وصورة الطفل فى تراثنا العربى نعرضها فى هذا الجانب: الطفل شاعرا، تمثل مرحلة هامة فى حياة الشاعر، إذ يذيع شعره بين الناس ومن بعد ربما يستعيد ذكراها وتجربتها البكر الوليدة معه، يقول البحترى مخاطبا الطبيعة وقد رد إليها جمالها ويعاوده الأمل فيتصابى:

قد تصابيت فاعذرى أو فلومى ... ليس شيء من الصبا من شأنى

ويطالعنا البحترى فى أبيات نظمها فى صباه(١١٩) فيذكر متغزلا:

ألا يا هبوب الريح فبلغ رسالتى ... سليمى وعرض بى كأنك مازح
وعنى اقرأها السلام وقل لها ... زعمت بالا يكتم السر بائح
فإن سألت عنى سليمى فقل لها ... به غير من دائه وهو صالح

وهذه محاورة أو حوارية فى جانب الهجاء، دارت بين شاعر تغلب كعب بن جميل والأخطل(وهو يومئذ صبى غرير) قال الأخطل:

وسميت كعباً بشر العظام ... وكان أبوك يسمى الجعل
وأنت مكانك من أوائل ... مكان القراد من إست الجمل

وعندما لج بينهما الهجاء قال كعب بن جميل: إن غلامكم هذا لأخطل(١٢٠).

وبعد.. فقد طوف هذا المبحث مع نماذج شعرية فى أدبنا العربى بهدف التأكيد على وجود الدعائم التراثية فى مجال أدبيات الطفل، وهى دعائم تقوم على رؤية العقل العربى والمبدع العربى لصورة الطفل، كما جسدها خيال الشعراء ونظم الرجاز أو كتبها الشعراء بأنفسهم فى طفولتهم. وقد اجتهد المؤلف قدر طاقته ليعرض صورة الطفل من أدبنا الرسمى وهى صورة توزعت ملامحها عند معظم الأساسية المعروفة فى شعرنا الموروث.

بقى أن نسجل فى خاتمة هذا الفصل التأكيد على:

(أ) : وجود أغانى الأطفال الشعبية فى حياة الجماعة وهى تندرج تحت مظلة الأدب الشعبى ولها أهميتها فى الإمتاع والتسلية بنفس مقدار الأشعار القصار فى الأدب الرسمى، غير أن أغانى الأطفال الشعبية تخضع للتعديل فى نصوصها بالحذف أو الإضافة وفق استعمال الجماعة لها جيلا بعد جيل، وتتنوع أغانى الطفل فى الأدب الشعبى فتشمل أغانى اللعب، وأغانى المناسبات وأغانى المعتقدات وهى تمتاز بالتبسيط والإغراب فى الخيال لتشويقهم، وتصاحب هذه الأغانى الأطفال فى مدارج لعبهم، فى سلامهم وخصامهم وما من حادث أو فراغ فى حياة الطفل إلا وتملؤه أمه بالأغانى «والحواديت» والمناجاة بالمنظومات، تنيمه على أغنيات، تفرحه بأخرى وتشجعه على محاكاة الكبار وتعلمه الكلام بمنظومات بسيطة ذات جرس قوى.

(ب): بابات خـيـال الظل، وهو لون من الوان الأدب الشـعـبى له جذوره التراتية وليس وليدا لشـواهد العصـر الحديث كما يتصـور بعض البـاحـثين بقـوله (إن بابات خـيـال الظل القـديمة، بل تلك التى كانت ذائعة فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن تكفى للتعرف على عـادات كـثـيـرة وأنحـاء شـتى من الحـياة الشـعـبيـة.. وهى من النصوص الموضوعة للتسلية والإمتا ع)[١٢١] وقد أورد الدكتور الطاهر مكى فى كـتـاب لابن حـزم حـقـقـه وعلق عليـه، أورد فـقـرة منه فيذكر:(اشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل، وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى)[١٢٢] يقـول د. طاهر مكى فى تعليقه على ما ورد بهذه الفقرة التى أوردها ابن حزم الأندلسـى فى كـتـابه «الأخـلاق والسـيـر فى مـداواة النفـوس». (هذه الفقرة بالغة الأهمية فى التأريخ لفن خيال الظل لأنها تعنى أنه وجد فى الأندلس فى فترة مبكرة، تعود إلى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى. ويرجح الدارسون أن هذه اللعبة وفدت إلى مـصـر خـلال العـصـر الفـاطمى، من الصين، أو الهند أو جـاوة، وانتـقلت من مـصـر إلى الأندلس). ويميل المؤلف إلى الأخـذ بالرأى السـابق لأن ريادة خيـال الظل فى الشـرق كمـا يردها أحـمـد تيمور باشا فى كتابه «خيال الظل» إلى جعفر الراقص - فيها نسب ضعيف - ولأن استقراء مخطوطة الصفدى[١٢٣] التى اتكأ عليها صلاح الدين

بن أيبك الصدفى فى نسب اختراع الظل إلى جعفر الراقص بسبب أبيات من الشعر تتحدث عن الرقص تحت فصل بعنوان: فصل الختام عن التورية والاستخدام. أما مقولة أحمد تيمور باشا إن خيال الظل لعبة «وجدت بملاهى القصر مدة الفاطميين» فهى مقولة تتفق ورواية د. الطاهر مكى والمستشرق الألمانى بول كالا» وذلك لازدهارها فى زمن الفاطميين، وقد رأى د. ابراهيم حمادة أن الأدب العربى (الشعبى أو الرسمى) تقبل أدبيات المخايلة فى بطء، كما يرد زمن نشأة خيال الظل فى العالم الاسلامى والعربى إلى فترة «بدأت فى أواخر القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر[١٢٤]. ولو أردنا التأكيد على وجود منظومات شعرية كتبها الشعراء فى الراقصين أو فى المخايلين بمثابة أدلة كافية انشأة هذا الفن، لكان ذلك أمرا يسيرا فالتراث العربى القديم يزخر بذلك ومنه:[١٢٥]

منوع الحركات يلعب بالنهى ... ليس المحاسن عند خلع لباسه
بالعقل يلعب مقبلا أو مدبرا ... كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضم للقدمين منه رأسه ... كالسيف ضم ذبابة لرئاسه

إذن خيال الظل يقوم علي عناصر مادية وبشرية - بل هو الجنين اليافع لمسرح العرائس - الذى يألفه الصغار، والكبار. وكذلك إن المخايلة الفنية بالتمثيل والشخوص المألوفة وغير المألوفة بأسلوب نثرى وشعرى من خلف ستار هى الارهاصات الأولى لميلاد مسرح الطفل أو مسرح العرائس. ولا جرم إذا تطورت المخايلة الفنية (خيال

الظل) إلى المخايلة الشعبية المبهجة (الاراجوز). وقد يقول قائل: ما علاقة ذلك بأدب الطفل؟ وللرد على تلك المقولة نستطيع القول فى اطمئنان إن بابات خيال الظل شكل من أشكال التعبير فى الأدب الشعبى، له علاقة محببة بعالم الطفولة، وقد نما وتطور عبر تاريخنا الأدبى وهو يحتوى على مادة نثرية وشعرية أشهرها (نصوص ابن دنيال التمثيلية) سواء أكان خيال الظل قد نشأ لعبة فى بداياته ثم تطور كفن تمثيلى عرائسى فى ذروته، فإن الأزجال والأشعار التى كانت تروى على ألسنة شخوص بابات خيال الظل ويفهمها الأطفال ويتذوقونها ويستمتعون بها فهى تقترب من مفهوم الطفل وإن دار خيال الظل فى فلك الأدب الشعبى.

إن علاقة خيال الظل بأدب الطفل كعلاقة اللعب بالطفل، فخيال الظل يمتع عقل الطفل، لأنه إيهام بالصورة، واللعب ترجمة انطباعات الطفل إلى انفعالات محسوسة، ولذلك وجدنا أغانى اللعب تنتظم حياة الجماعة العربية وكم من قصص دارت حول الألعاب فى أدبنا الشعبى وفى أدبنا الرسمى، يقول الشاعر الجاهلى امرؤ القيس(١٢٦)

عــهــدتنى ناشــئــا ذا غــرة	رجل الجــمــة ذا بطـن أقب
اتبع الولدان أرخى مــئــزرى	ابن عــشــر، ذا قــريط من ذهب
وهى إذ ذاك عليــهــا مــئــزر	ولهــا بيت جــوار من لعب

إن مــادة أدبيــات الطفل التى عــرضنا لمنتــخـبــات منهــا ونحن نستقرىء الطفل فى تراثنا الشعرى فى تراثنا، مادة كافية لإثبات

وجوده كجنس أدبى فوق خارطة الأدب الرسمى وألفينا الطفل كذلك يمثل شريحة عمرية كبيرة وهامة فى أى مجتمع، تتلقى الأدب كأى شريحة أخرى، من المتلقين والمتذوقين للأدب فى صفوف المجتمع، أما إلحاق النتاج المعرفى بأدب الأطفال فنعده من الخلط الواضح فى تحديد دقة المصطلح الأدبى.

إن أدب الطفل فى أدبنا الرسمى هو جنس أدبى مركب تتعدد أشكاله، شأن باقى الأنواع الأدبية لا يميزه عنها من فروق دالة سوى الفروق فى الخصائص المعرفية والإدراكية بين الصغار والكبار، وبالتالى الفروق الفنية بين أدبيهما.

هوامش الفصل الأول

(١) الأدب المكتوب (عن) الطفل يشتمل على جانبين: أولهما: الدراسات والمؤلفات اللغوية والأدبية والفنية(الجمالية) حول الطفولة، وثانيهما ابداع الكبار الأدبى والفنى(عن) أطفالهم بخاصة والأطفال بعامة شريطة الا توجه ابداعاتهم أساسا للطفولة بمستوياتها اللغوية والادراكية، أما الأدب المكتوب (للطفل) – مجال بحث هذا الكتاب – فيشمل (النتاج الأدبى الشعرى والنثرى) الموجه أساسا للطفولة بمستوياتها اللغوية والادراكية، ويميل المؤلف إلى عدم الصاق المؤلفات التربوية والتاريخية والعلمية إلى الأدب المكتوب للطفل) أو (عنه) وإنما يكون تصنيف هذه المؤلفات بمجال ثقافة الطفل بمعناها الواسع.

(٢) من مثل: الحكايات القصصية المسلية، الخرافية، والاسطورية والفكاهية والتعليمية والحكايات الشعبية والنوادر والأمثال والحكم والألغاز، والأمهودات والأناشيد والأغانى والأراجيز، وجميعها كانت تروى للأطفال بهدف التسلية والمتعة والمنفعة والتربية الوجدانية والتهذيبية.

(٣) مفهوم الأدب الشعبى، د. كامل مصطفى الشيبى. ص، دائرة الشئون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦.

(٤) قاموس علم الاجتماع، د. عاطف غيث، ص ١٩٠ الهيئة المصريةالعامة للكتاب ١٩٨٠.

(٥) الأسطورة بمعناها اليونانى MTYH وبمعناها فى العلوم الانسانية

LEGEND عبارة عن مأثورة شعبية تقوم على الأحداث التاريخية المتصلة بشخص أو حادثة ما وشى المعتقدات المشبعة أو المحملة بالقيم والمبادىء التى يعتنقها الناس والتى يعيشون بها أو من أجلها «السابق ص ٢٧٠.

(٦) الأدب والطفل، د. محمود أحمد حمدون، ص.٩٦ رسالة الخليج العدد ٢١، السعودية ١٩٨٧م.

(٧) الحكاية الشعبية، د. عبد الحميد يونس، ص ٨ - ٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

(٨) فى أدب الأطفال، د. على الحديدى، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٩) السابق ، المقدمة.

(١٠) أيام العرب فى الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى وآخرون، المقدمة ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى «شركاه. مصر د. ت. انظر المزيد من التفاصيل: تاريخ العرب القدامى للشيخ محمد فخر الدين، بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى، أمثال العرب للمفضل الضبى، جمهرة الأمثال للعسكرى، مجمع الأمثال للميدانى وغيرهم.

(١١) الحماسة لأبى تمام التبريزى، جـ ٢، ١٨٥.

(١٢) الحكاية الخرافية، فريد شفن دبر لابين، ترجمة د. نبيلة ابراهيم ص ١٩٦ - ١٩٩، القاهرة ١٩٦٥.

(١٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب، د. أحمد ضيف، ص ٥٨ - ٥٩.

(١٤) فى الرواية العربية، فاروق خورشيد، ص٥٤.

(١٥) الحكاية الخرافية: قصة أحداث خيالية، يقصد بها حقائق مفيدة فى شكل جذاب وينصب عليها مصطلح الخرافة الأخلاقية تبعا للقصص الأخلاقية

المروية على لسان حيوان، من أمثال كليلة ودمنة، انظر معجم الأدب، د. مجدى وهبة، صفحات ٢٦.

(١٦) عرف العرب قصصا تتناول بالتفسير المطعم بالبقايا الأسطورية، الحياة والخلق، فحكوا الحكايات عن نشأة العالم وعن آدم ونسله وعن نشأة اللغات وتعددها، وعرفوا قصص الشعوب وقصص الأماكن وقصص الملوك والأبطال وتطورت بعد الإسلام إلى حكايات وأساطير موجهة، وأشهر ما تم تدوينه كتب: التيجان ومضاض ومى، والحارث ابن مضاض وقصة ذى القرنين فى الفترة التى سبقت ظهور الأسلام، وأيام العرب ووقائعهم وملامحهم وأخبارهم (كتب أخبار ملوك اليمن) انظر: فى الرواية العربية لفاروق خورشيد. ط دار الشروق ١٩٧٥.

(١٧) انظر: أمثال العرب للمفضل الضبى، مجمع الأمثال للميدانى، جمهرة الأمثال للعسكرى، الامالى للقالى، الحيوان للجاحظ، ثمرات القلوب للثعالبى الأغانى للأصفهانى، المستطرف فى كل مستظرف للابشيهى، عجائب المخلوقات للقزوينى، حكايات الحيوان الكبرى للدميرى، تهذيب الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون، وغيرها.

(١٨) Migs cornelia, A Critcal History of Children,s Literature, p 155

(١٩) أشكال التعبير فى الأدب الشعبى، د. نبيلة ابراهيم ٥٠– ٥١

(٢٠) الأطفال والأدب الشعبى. د. محمود ذهنى، ص ١٧٨ – ١٧٩، مقالة بمجلة العربى الكويتية مارس ١٩٨٨م.

(٢١) الف ليلة وليلة، د. سهير القلماوى ص ٧٤ – ٧٥، ط دار المعارف.

(٢٢) التربية الجمالية المعاصرة، ف ساخوملوفسكى، ترجمة كاترين كالدسون

ص١٣٢، طـ موسكو ١٩٧٧.

(٢٣) أشكال التعبير فى الأدب الشعبى، د. نبيلة ابراهيم، ص ٦٩ - ٨٠.

(٢٤) تأثير لافونتين بكليلة ودمنة عن ترجمة جلبير جوللان، كما تأثر دانتى فى الكوميديا برسالة الغفران للمعرى، ومازالت ألف ليلة وليلة مصدرا لا ينفد للاقتباس فى معظم الآداب الأجنبية شأنها شأن قصة حى بنى يقظان فى الأخذ عنها ومحاكاة مضمونها والتأثر بها يبدو فى آداب أكثر من لغة عالمية.

(٢٥) كليلة ودمنة، لابن المقفع نقلا عن الحكيم الهندى بلباى، ص٦٧ - ٦٨ طـ القاهرة ١٩٦٨م.

(٢٦) سميت عدة من سور القرآن الكريم باسماء الحيوانات والطيور وسيقت آيات تلك السور بغرض ايضاح معجزات الخالق فى خلقه ومخلوقاته، ومنه حديث وادى النمل والنملة. قال تعالى فى سورة النمل:«يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم» وقال عز من قائل من حديث الهدهد إلى نبى الله سليمان «أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين» من قوله «وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير»، والطير لا تنطق فقط بل تسبح لله وتصلى:(ألم تر أن الله يسبح له ما فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون) الآية ٤١ سورة النور.

(٢٧) الحكاية الشعبية، د. عبد الحميد يونس، ص١٨، الهيئة المصرية العمة للكتاب، ١٩٨٥.

(٢٨) انظر لمزيد من التفاصيل حول القصة: السيرة لابن هشام، الأغانى للأصبهانى، لمستطرف للابشيهى.

(٢٩) تعد المقامات العربية من مثل مقامات بديع الزمان الهمذانى، أحد أشكال

التعبير القصصى، فالمقامة قصة مسجوعة غالبا، تشمل على عظة أو لمح تؤدى بجمل قصيرة مرحية. منها هذا البيت من المقامة البصرية للهمذاني:

يطوف ما يطوف ثم يأوى إلى زغب محددة العيون

انظر: مقامات الهمذاني، شرح الشيخ محمد عبده، ط بيروت، ١٩٨٩م.

(٣٠) انظر لمزيد من التفصيل حول القصة: السيرة لابن هشام، الأغانى للأصبهاني، المستطرف للابشيهى.

(٣١) يمكن الاعتماد على مادة حكايات التراث القصصى العربى بإعادة تقديمها للأطفال بعد تبسيطها وتهذيبها بديلا عن استغراق الكتاب المحدثين فى الاقتباسات والنقول المتزايدة عن الآداب الأجنبية بقيمها الوافدة، وقد أفاد من تلك الاقتباسات الأجنبية كامل كيلانى من المحدثين وعبد التواب يوسف من المعاصرين، فى فنية وريادة غير مسبوقة.

(٣٢) درج نفر من الباحثين على ترديد مقولة غربية مؤداها أن الأدب فى الأمم السامية يتسم بعدم وجود النموذج الكامل للأساطير بسبب ضعف الخيال، وتاريخ الأدب فى الأمم الشرقية يدحض ذلك فكم من أسطورة وجدت عاشت بين الأجيال جيلا بعد جيل فى الحضارات البابلية والفرعونية والهندية والجاهلية. لمزيد من التفاصيل، راجع: India Myths, Babylon Myths Egyption Mythology, وقد أشار كتاب الشرق فى مؤلفاتهم إلى معرفتهم بعناصر الأساطير قال الشاعر العربى القديم:

واعلم أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفى

والعنقاء طائر وهمى نادر فى معتقد الناس يرمز للخلود لدى كثير من شعوب العالم القديمة وقد ذكر العرب فى تاريخ آدابهم وفى آياتهم «العنقاء» وكان للعنقاء الطائر العربى الأسطورى أثره فى الآداب الأجنبية وسميت

العنقاء بالشجرة العربية، فقد ورد ذكر العنقاء لدى شكسبير فى مواضع متعددة باسم الطائر العربى منها مسرحية «كما تهواه» و«العاصفة وهنرى السادس» اضافة إلى تكريس قصيدته «العنقاء والنواح لها» ويردفها أيضا باسم الشجرة العربية، لمزيد ممن التفاصيل انظر: كتاب الحيوان للجاحظ والعين للفراهيدى.

(٣٣) المعجم الوجيز، طـ مجمع اللغة العربية، ص ٤٠٥ القاهرة.

(٣٤) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه، أحمد الاسكندرى وآخرون، المقدمة طبع القاهرة سنة ١٩١٦م.

(٣٥) صحيح البخارى، جـ١ ، باب الأدب.

(٣٦) المنهل، ع ١٩١، ١٤٠٥، السعودية.

(٣٧) المستطرف من كل مستظرف للابشيهى، ص ٣٩جـ ١.

(٣٨) نهاية الأرب للنويرى ص ٢٠٥.

(٣٩) فجر الأسلام، أحمد أمين، ص٤٣.

(٤٠) المرجع السابق.

(٤١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ١٦.

(٤٢) لسان العرب لابن منظور مادة حكم ص ٩١ – ٥٩٢.

(٤٣) العمدة لابن رشيق ، المقدمة.

(٤٤) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه، أحمد الاسكندرانى وآخرون ص. ١٧ – ١٨.

(٤٥) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربى، تحقيق محمد موسى الخولى ص١٥٣، ٢٢٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٤٦) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص٤٠٤ ط دار المعارف، د.ت.

(٤٧) وجدت مخطوطة أمثال لقمان الحكيم بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ١٧٥ وتقع في ٤٤١ ورقة بواقع ١٤ سطر في كل صحيفة من المخطوطة، ونظرا لأهميتها البالغة قام د. يوسف حبي بنقلها محققة عام ١٩٨٥، انظر أمثال لقمان الحكيم، د. يوسف حبي، المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٥.

(٤٨) أشكال التعبير في الأدب الشعبي د. نبيلة ابراهيم ص ٢٢٥ – ٢٣٤.

(٤٩) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ص ٥٥٩.

(٥٠) لسان العرب لابن منظور، مادة لغز، ص. ٤٠٤٧ – ٤٠٤٨.

(٥١) لسان العرب لابن منظور، مادة حجا، ص ٧٩٢.

(٥٢) معجم مصطلحات الأدب، د. مجدي وهبة ص. ٤٨٢.

(٥٣) المستطرف في كل فن مستظرف، للابشيهي، ص ٢٠٢ – ٢٠٥ ط دار الفكر د.ت.

(٥٤) انظر لمزيد من التفاصيل حول استقرار مضامين الحكايات القصصية وأنواعها مثل ألف ليلة وليلة، كليلةودمنة، الحيوان للجاحظ، عجائب المخلوقات للقزويني، حياة الحيوان الكبرى للدميري، ومن المراجع الحديثه، قصصنا الشعبي د. فؤاد حسنين، القصة في الأدب العربي القديم د. محمود ذهني، القصص في الأدب العربي. د. عبد الرازق حميده، الرواية العربية فاروق خورشيد وغيرهم.

(٥٥) احياء علوم الدين، الغزالى، جـ١، ص٩٦، ط دار الشعب، د.ت.

(٥٦) الأدب التعليمى صفة تطلق على العلم الأدبى الذى هدفه الرئيسى نقل رسالة سياسية أو أخلاقية أو دينية أو علمية، بالإضافة إلى نقل الحقائق وتحقيق اللذة والتسلية: ص١١٢ معجم مصطلحات الأدب، د. مجدى وهبة.

(٥٧) ثمار القلوب للثعالبى، ص ٦٩٦.

(٥٨) تكاد تجمع المؤلفات العربية فى مصادرها الأولى على ضرورة تعليم الأبناء الشعر وتلقينهم مقطوعاته وروايته كذلك، باعتبار الشعر مثيراً للعاطفة ومحركاً للوجدان من ناحية، وعاملاً حاسماً من عوامل النمو اللغوى. من ناحية أخرى لمزيد من التفاصيل حول فكرة تعلم الشعر وروايته أنظر: السيرة لابن الهيثم، الأغانى للأصفهانى، الشعر والشعراء لابن قتيبه، العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق، طبقات فحول الشعراء لابن سلام وغيرها. من كتب التربية الإسلامية: تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين لابن عبد ربه، أيها الولد المحب للإمام الغزالى، مقدمة ابن خلدون وغيرها.

(٥٩) مصادر الشعر الجاهلى، د. ناصر الدين الأسد، ص ١٩٩.

(٦٠) العقد الفريد، لابن عبد ربه، جـ١ ص ١٢٥.

(٦١) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٠٨، ط دار الشعب ، القاهرة.د.ت.

(٦٢) السابق، ص ٥٢٢ - ٥٢٣.

(٦٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه، للجرجانى، ص١٨.

(٦٤) خزانة الأدب لابن حجة الحموى، ص ١٢٤.

(٦٥) ديوان الصنوبرى، للصنوبرى، تحقيق د. احسان عباس، ص١٠٣،

(٦٦) ديوان الصنوبرى، للصنوبرى، تحقيق، د. احسان عباس، ط١٠٣،

(٦٧) أمية بن أبى الصلت الثقفى، شاعر ممخضرم: انظر شروح الحماسة:
المنتخب من أدب العرب جـ ٤ ص٩٣ ٩٤ ط الأميرية ١٩٤٤.

(٦٨) افاض العديد من أهل الأدب عبر تاريخ الأدب العربى فى نظم القصائد وتحبير المؤلفات فى رثاء الأبناء، وتزخر المكتبة العربية بمخطوطات نادرة حول الأشعار التى نظمها الآباء أو الشعراء في وفاة الأبناء أو الأولاد، منها سلوة الحزين فى موت الذرية، والجلد عند فقد الولد، وكلاهما، للسيوطى وغيرهما وقد خص الباحث الأردنى د. مخيمر صالح اطروحته للدكتوراة لموضوع«رثاء الأبناء فى الشعر إلى نهاية القرن الخامس الهجرى» انظر الأطروحة مطبوعة نشر جامعة اليرموك، الأردن ١٩٨١.

(٦٩) فى تاريخ الأدب الجاهلى، د. على الجندى، ص (٥٠) دار المعارف. ١٩٨م.

(٧٠) ديوان الصنوبرى، تحقيق د. احسان عباس، ص ١٠٠ بيروت ١٩٧٠م.

(٧١) العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ ٣، ص ٢٥٩.

(٧٢) ديوان ابن الرومى، تحقيق د. حسين نصار، ج٢، ص٢٢٦، دار الكتب ١٩٧٣م.

(٧٣) اللافت للنظر فى شرح ديوان الحماسة، للمرزوقى، جـ١. ص ٢٨٥، الحماسية ٨٦ وينقصها البيت السابع والبيت الأخير من الحماسة:

ولو مرت الريح على بعضهم   لامتنعت عينان عن الغمض

وينسب المرزوقى الأبيات لخطاب بن المعلى « أما خطاب بن المعلى ففيه تصحيف وحطان بن المعلى شاعر اسلامى من بنى مخزوم فهو مخزومى قرشى.

(٧٤) ديوان ابن الرومى، تحقيق، د. حسين نصار، جـ٢، ص٢٢٦، ط دار الكتب ١٩٧٣م.

(٧٥) المستطرف من كل فن مستظرف، للابشيهى، جـ٢ ص١٠، ط دار الفكر القاهرة. د.ت .

(٧٦) العمدة لابن رشيق، ص٣٥

(٧٧) محاضرة الأخيار ومسامرة الأبرار، لابن عربى، جـ١، ص ٢١٣.

(٧٨) بديع الزمان الهمذانى، مارون عبود، المقامة القريضية ص ٧٧، دار المعارف ١٩٦٧م.

(٧٩) ثمار القلوب، للثعالبى.

(٨٠) السابق نفسه.

(٨١) السابق نفسه.

(٨٢) السيرة النبوية لابن هشام، جـ١ ص ١٦.

(٨٣) السيرة النبوية لابن هشام، جـ١ ص ١٦.

(٨٤) المفضليات، للمفضل الضبى، ص ٤٠٩.

(٨٥) لعل مثل هذا يتفق والدعوة المعاصرة لتنظيم الانجاب فى الأسرة، فالثمرة أبناء أصحاء.

(٨٦) الشعر وطوابعه الشعبية، د. شوقى ضيف. ص٨٩.

(٨٧) انظر شروح الحماسة، والكامل للمبرد وتتمة المقطوعة بالكامل للمبرد ص ٣١٥، ط بيروت.

(٨٨) الكامل للمبرد، ص ١٤٠.

(٨٩) الأصمعى د. أحمد كمال زكى، ص. ١٥٩ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٩٠) الأصمعى، د. أحمد كمال ذكى، ص ٣١٦.

(٩١) البيان والتبيين، للجاحظ جـ١، ص ١٨٠.

(٩٢) انظر نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين لألفت الروبى، التربية فى الاسلام د.. أحمد فؤاد الأهواني.. وللمزيد انظر، آراء فلاسفة التربية الاسلامية القدامى في مؤلفات: ابى الحسن القابسى، ابن جماعة، ابن مسكويه، الغزالى، وابن خلدون.

(٩٣) احياء علوم الدين والغزالى، جـ٨ ص ١٤٣٩.

(٩٤) السابق. جـ٢ ص ١٤٥.

(٩٥) الأغاني، ج١ ص ١٤٩.

(٩٦) السابق، جـ٣ ص ١٤٥.

(٩٧) السابق ، ج ص ٢٩.

(٩٨) شرح ديوان الحماسة، للتبريزى، جـ٢، ص ١٩١.

(٩٩) عنى بنشره المستشرق ح، هيورث، دون فى ثلاثة أقسام: قسم أخبار الشعراء. طبع سنة ١٩٣٤ (وهو المتضمن أشعار كليلة ودمنة لابان اللاحقى)، وقسم أخبار الراضى بالله والمتقى بالله طبع سنة ١٩٣٥ م. والقسم الأخير أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم طبع عام ١٩٣٧ انظر أبو بكر الصولى، أحمد العمرى ص ٢٢٧ - ٢٧٩. ط هيئة الكتاب ١٩٧٣.

(١٠٠) أطفالنا والتراث، ندوة عربية، ط المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٨.

(١٠١) حديث الأربعاء، د. طه حسين، جـ٢ ص،٢٢٣.

(١٠٢) عالم الفكر، مقالة للدكتور عبده بدوى، ص ٤٩- ٥٠، (ع) ع يناير ١٩٨٦، الكويت.

(١٠٣) المغرب فى حلى المعرب لابن سعيد الاندلسى. تحقيق د. شوقى ضيف

جـ٢، ص ٦٠.

(١٠٤) المرجع السابق

(١٠٥) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، للبطليوسي، تحقيق مصطفى السقا د. حامد عبد المجيد جـ١، ص٤٠.

(١٠٦) مجالس ثعلب، لأبي العباس أحمد بن يحيى، تحقيق عبد السلام هارون جـ، ص ١٤١.

(١٠٧) المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٨، جـ٥، ص ٢٦٠.

(١٠٨) المرجع السابق

(١٠٩) الأغاني للأصبهاني، جـ٢٠، ص٣٤٠ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(١١٠) السابق، ص ٥٨.

(١١١) السابق. جـ١٣، ص ٢٩٣.

(١١٢) الأغاني، جـ٢١، ص٤١.

(١١٣) الأغاني، للأصفهاني، جـ ١٨١، ص ٦٣٥٩.

(١١٤) حياة الحيوان الكبرى، للدميري، مادة القبرة.

(١١٥) السابق . للأصفهاني، جـ ١٦ ص ٥٧١٨.

(١١٦) انظر المحاورة تفصيلا بكتاب: أنباء نجباء الأبناء، محمد بن ظفر ص ١٠٧ – ١٠٨.

(١١٧) ابو الطيب المتنبي حياته وشعره، عباس محمود العقاد ومجموعة من الكتاب، ص ١١– ١٢٥، ط المكتبة الحديثة، بيروت، ١٩٨٢م.

(١١٨) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، جـ٢ ص ٤٧.

(١١٩) يقول شوقي ضيف:.. أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة انظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٨٨): انظر الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي، تحقيق مصطفى السقا، د. حامد عبد المجيد، جـ١ ص ١٠١، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١.

(١٢٠) ديوان البحتري، بتحقيق حسن كامل الصيرفي، مج١، ص ٤٦١، ط ٣ دار المعارف ١٩٧٧.

(١٢١) الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، ص ٢٥٥ – ٢٢٤، ط الهيئة المصرية ١٩٧١.

(١٢٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، تحقيق وتعليق وتقديم: الطاهر مكي. ص ١٢١ – ١٢٢.

(١٢٣) انظر ديوان الصفدي، مخطوطة بخط يده سنة ٧٣٨ هـ، محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٧٧٦، ١٨٤ خيال الظل، أحمد تيمور باشا، ص ٢٢، دار الكتب العربي ١٩٥٧م.

(١٢٤) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، دراسة وتحقيق ابراهيم حمادة ص ٤٥ ط وزارة الثقافة ١٩٦٣م.

(١٢٥) المغرب في حلى المعرب، لابن سعيد، تحقيق، د. شوقي ضيف، ص ١٣٧.

(١٢٦) خيال الظل، أحمد تيمور باشا، ص القاهرة، ١٩٥٧.

الفصل الثانى

أدب الطفولة
فى
العصر الحديث

مـــدخــــــل

الطفولة هى الغرس المأمول لبناء مستقبل الأمة، والأطفال هم ثروة الحاضر وعدة المستقبل فى أى مجتمع يخطط لبناء الإنسان الذى يعمر به أرضه، ويدعم بفاعليته وجوده الإنسانى ويؤكد تواصله الحضارى، والأطفال هم بهجة الحياة ومتعة النفس لأننا لو نظرنا إلى الحياة فى وجهها المضىء لرأينا أن ما يمنحها الجمال والسعادة أمران اثنان هما: المال والأبناء. يقول الله عز وجل فى محكم كتابه الكريم:

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) الآية ٤٦ سورة الكهف.

فالأموال والأولاد هما الثروة فى جانبيها المادى والبشرى، وعلى هذين الأمرين تقوم الحياة ويعمر الكون وتدور بواسطتهما عجلات التاريخ الإنسانى.

وفى أهمية الطفولة وحسن رعايتها يقول الرسول الكريم (ﷺ) فى الحديث النبوى: (الولد من ريحان الجنة [١]). وعبر الأدباء عن مكانة الطفل إلى النفس، ففطنوا إلى التعبير عن ذلك عن طريق النثر والشعر، ويقول الشاعر العربى حطان[٢] بن المعلى فى مقطوعته

الشعرية الضادية:

أنزلني الدهر على حكمـــه ... من شامخ عال إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر، ويا ربما ... أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بنيات، كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمض

وإذا كان الأدب هو الصورة الراقية في سجل الحياة المكتوب، فإن خيوط الكتاب سيجمعها نسيج واحد محوره التأريخ لمفهوم أدب الطفل وتطوره في مصر بعامة واستقراء وتحليل شعر الطفولة بخاصة، إذ الشعر الموجه - كنوع أبي - لأي كائن بشري عاقل هو من أهم الأجناس الأدبية التي تشكل وجدانه وتحفز مشاعره نحو جمال الكمال، وسيتوفر هذا الجزء من هذا الكتاب على جذور أدب الطفل في تراثنا العربي والإسلامي لسبر ظاهرة وجود هذا الجنس الأدبي العربي في ظل الحضارة الإسلامية.

وفي العصر الحديث أحس أمير الشعراء أحمد شوقي (١٩٣٢) بضرورة إرساء القواعد لبناء جنس أدبي خاص بأدبيات الطفل بحيث ينهض الأدباء بإبداعاتهم، والمدرسة بمناهجها، والمجتمع بشمول نظرته في سبيل تعبيد الطريق لخلق الأدب المميز للطفل، وكانت

صيحته مع النتاج الإبداعي الذى قدمه للطفل فى الجزء الرابع من ديوانه الشوقيات من العلامات الدالة على تعبيد الطريق أمام هذا الفن الجديد، يقول أحمد شوقي فى قصيدة[٣] له حول الطفولة:

البنون هم دمنا لا	والحياة والورد
تلذ مثلهم يستوون	مهجة ولا كبد
فى واحدهم زينة	الحنان والعدد
ومصلحة	واستراحة ودد

ولقد كتب الكاتبون كثيراً حول الطفولة فى العصر الحديث، إذ قام رجال التربية وعلم النفس وخبراء الطفولة بمهام متنوعة وبالغة الأثر فى تأصيل أساسها النفسي والتربوى والمعرفى والثقافى والصحى، من زمن الرائد رفاعة الطهطاوى(١٨٧٣) إلى آخر الكوكبة المعاصرة من المهتمين بهذه المجالات جميعاً، ولقد تضاءل الجانب الروحى المتعلق بأدبيات الطفولة وسط زحام الجهود الكبيرة التى بذلت، فقد مضى ما يقرب من مائة سنة على الصيحة الواعية التى أطلقها أحمد شوقي – وصدر بها الطبعة الأولى من ديوانه – لتأصيل نوع أدبى مستحدث للطفل. وعلى استحياء تضاءل دور المبدع بينما نما وتعاظم دور أصحاب المجالات العامة والمرتبطة بتعليم الطفل وصحته وأخيراً ثقافته وميوله المعرفية والقرائية. إن دخول الأدباء هذ المجال الحيوى والتوجه بالإبداع الأصيل لخلق أدب للطفل شعره ونثره، يحقق فى المستقبل شريحة سوية خلاقة منتجة

من بين أهم الشرائح الاجتماعية التى يقوم عليها أى مجتمع.

والطفل وهو يكتسب هذه الأهمية يستطيع أن يمارس دوره في التنمية البشرية كحق طبيعى وهبه الرحمن تعالى:(الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان). الآيات (١-٤) سورة الرحمن، وألزمه التعليم والإدراك والتذكر والتدبر قال عز وجل: (إقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم) الآيات (١-٥) سورة العلق. وقد فطن الأوائل من علماء العربية وفقهاء الإسلام إلى أهمية العناية بالأبناء والحث على تأديبهم وتعليمهم وإرشادهم للأخذ بأسباب التعليم والإفادة من مطالعة الكتب التى تخاطب القلب وتنمى العقل. ويقول الإمام الغزالى (- ١١١١م): «أيها الولد كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب.. أيها الولد إذا قرأت العلم أو طالعته، ينبغى أن يكون علمك يصلح قلبك ويزكى نفسك»[٤]، وفى هذا قال ابن المقفع «وللعقول سجيات وغرائز تقبل الأدب، وبالأدب تنمو العقول وتزكو وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى بنات العقل.. بالأدب تعمر القلوب وبالعلم تستحكم الأحلام»[٥] .

إن النظرة إلى الطفل وإلى أدبه المنشود، بحاجة إلى إعادة البحث والتنقيب فى تراثنا الأدبى الفكرى لاستخراج أدبيات الطفل بمعناها الفنى المستحدث لأن أغلب النتاج الذى قدم لجمهور الطفولة من

معظم الكتاب، هو ما يمكن أن نطلق عليه النتاج المعرفي باعتباره نتاجاً يتعلق بالعقل والتمييز والفهم والاستدلال والثقافة العامة، أما أدب الطفل المنشود فهو الذى يتكىء فى أساسه على الإبداع الخلاق والعوامل الوجدانية، فهو أدب عاطفي يسير فى خط مواز مع مضمون ذلكم الكم الهائل من كتب الأطفال المدرسية المعرفية. ونكاد نجزم بوجود نظرة قاصرة غير مبالية لأدب الطفل من المبدعين المعاصرين بإهمالهم التوفر على إبداع أدبى متميز له، وقد فوت ذلك على المجتمع فرصة البناء التربوى المتكامل، ونعنى به إكتساب المعرفة والتعليم، والتزود بالقيم الخلقية وحفز الميول الإبتكارية الإبداعية وتنمية الميل للأدب والفن بسبب عدم التناغم فى عزف أنشودة البناء التربوى المتكامل من ناحية، وأيضا توقف الأدباء عن السير فى خط موازٍ لجهود رجال علم النفس والتربية وكتاب الثقافة العامة للطفل من ناحية أخرى.

إن الجهود الحاضرة على المستوى القومى(٧) تستشرف صياغة خريطة جديدة للطفل، من زمن الحمل إلى نهاية الطفولة المتأخرة، وهى مرحلة طويلة ومتشعبة على درجة عالية من الدقة والخطورة لو أهملنا جانباً من الجوانب التى يحتاجها الطفل لحساب جانب آخر، ولعل الطفل المصرى بحاجة إلى الأدب والفن قدر حاجته للتعليم والإشباع الفسيولوچى أو الرعاية الاجتماعية، وهذا كله يتطلب السير

فى نسق مخطط لنحقق مفهوم التربية المتكاملة والذى عبرت عنه الفقرة السابعة من الإعلان العالمى لحقوق الطفل:

« .. من حق الطفل أن يتلقى تعليماً مجانياً وإجبارياً على الأقل فى المراحل الأولى ويجب أن يعطى تعليماً يرقى بثقافتة العامة، ويساعده على أساس من الفرص المتكافئة.. ويجب أن تنمى قدراته ومداركه وإحساسه»(٧).

إن اهتمام الدول والحكومات بالطفولة - حاضرها ومستقبلها - دليل على صدق الاتجاهات الحديثة فى سائر الثقافات الإنسانية المعاصرة، التى ذاقت جميعاً ويلات الحضارة المادية الحاكمة لعالم اليوم، ولعل إصدار منظمة الأمم المتحدة لميثاق حقوق الطفل ومؤتمر رؤساء الدول تحت مظلة الأمم المتحدة أيضا - يمثلان خير تمثيل اتجاه المسيرة الحضارة نحو البناء الروحى، فميثاق حقوق الطفل يستهدف الأجيال الناشئة فى كل بقاع العالم بحيث يأخذ الطفل حقه فى الحياة من خلال تربية متكاملة فى جانبيها المادى والروحى كى يتحمل دوره فى مستقبل البشرية وهو فى حالة إشباع وجدانى بعد أن كادت الحضارة المادية تطمس الآثار الإيجابية الوجدانية فى الطفولة، وهو العامل الحاسم فى مستقبل أى أمة، لذلك تصدر الإعلان لميثاق حقوق الطفل عبارة سديدة تقول: « من الواجب على الإنسانية أن تمنح الطفل أحس ما تملكه»(٨). ومما لا شك فيه أن

للأدب دوره الحيوى فى حفز ملكات الطفل الروحية، وعلاقة الطفل بالأدب علاقة مميزة، تسهم فى تكوينه الوجدانى وترقية مشاعره وتهذيب سلوكه وتأصيل الميل إلى الفن والثقافة، فالأدب بفنونه له جاذبيته وتأثيره على الأطفال إذا حظيت مادة الأدب بمقومات أدبيات الطفل التى تتفق ومداركه، ودرجة استيعابه، ومدى تذوقه، ومن المعروف أن الطفل يخاطب قبل التعلم المدرسى مخاطبة حسية من المحيطين به وبالتالى فإن التعامل مع قلب الطفل وأحاسيسه ومشاعره يجىء فى مرحلة تسبق الأساليب التى تقوم فى أساسها على العقل والمنطق، فأغانى المهد الموقعة التى يتلقاها الطفل هى أول علاقة أدبية وجدانية تنشأ بين الأم والطفل، إذ أن هذه الأمهودات تلعب دورها الحيوى فى وضع البذرة الأولى فى تربة التربية الوجدانية وتنبيه مشاعر الطفل للأحاسيس والمشاعر والأنغام الموقعة، فالطفل إذا - وقبل الوصول إلى رياض الأطفال وسن المدرسة - «من أشد المخلوقات قابلية للتأثير والانفعال، ومحبة للكشف والاستطلاع، ورغبة فى تحقيق الذات»(٩) وقد أخضع علماء علم النفس الارتقائى الطفل فى مراحل نموه المختلفة لعدة بحوث ودراسات تتعلق بطبيعة ودرجة إشباع الحاجات عنده. ومن البحوث الهامة فى هذا الصدد البحث الذى قدمه ستين «StienM,I» تحت عنوان استثارة الإبداع «Stimulating Creativity» عند الطفل،

حيث وجد أن الحاجات الإنسانية تبدأ فى مدرج قاعدته إشباع الحاجات الفسيولوجية وعلى قمته الإشباع الروحى أو الوجدانى من خلال مفهوم التقدير واحترام الذات، والذى لاشك فيه أن ما يكتسبه الطفل من الأدب «ليس مجرد الإشباع أو غير ذلك من المكتسبات المباشرة التى ينصرف إليها الذهن لأول وهلة. إن ما يكتسبه بالدرجة الأولى هو التهيؤ لفهم الآخرين والتفاعل معهم بما يناسب المواقف، والقدرة على عمل الأشياء وتوليد الأفكار ومواجهة المشكلات».(١٠) وهناك حقيقة هامة فى مجال الأدب الموجه للطفل هى أن الأنواع الأدبية التى تناسب الكبار لا تناسب الصغار بالضرورة لأن «الوصول إلى مشاعر الأطفال والتجاوب معهم فى غير افتعال مسألة فى غاية الصعوبة، إذ يقف الكاتب للأطفال على حد دقيق دقة السيف بين تيسير قد يؤدى إلى درك من الإسفاف، وسمو قد يؤدى إلى إنفصام عن الطفل وإمكاناته»(١١).

إن العلاقة بين الأدب والطفل علاقة متعة ومنفعة، الأمر الذى تؤكده الأهداف أو الوظائف التى يتضمنها الأدب الطفل، فأدبيات الأطفال تنتظم فى سلسلة وظائف أهمها تأصيل القيم الخلقية والجمالية والتربوية واللغوية والثقافية المعرفية بعامة، وهذه القيم السلوكية والفنية منها ما يهدف إلى الترويح والمتعة وجلب السرور، ومنها ما يعمل على الارتقاء بسلوكيات الأطفال وأخلاقهم، بالإضافة

إلى غرس القيم الفنية الإيجابية فى «اطار التربية الوجدانية، عن طريق إثارة انطباعات الطفل الحسية والمعنوية وبما يقدم له من الصور الذهنية والفكرية ويفسر له الظواهر والمعانى»(١٢) . ومهما يكن من أمر التعددية الواضحة فى طبيعة أدب الأطفال وغاياته من حيث هو أدب مستحدث فوق خارطة الأدب الكبرى، فإن هذا الأدب يستهدف في أهم توجهاته توسيع دائرة التشكيل الوجدانى للطفل فى خط مواز للمنهج المدرسى. إن أدب الطفل فى مجمله ليس تحريك المشاعر الإيجابية وحفز الوجدان فقط وإنما هو أدب موجه نحو «الثقافة بمفهومها الواسع وأعنى به مجموع التصورات والأفكار التى تنتظم فى ذهن الأمة ووجدانها»(١٣).

والأثر الإيجابى الذي يحققه الأدب فى عقل وقلب الطفل لا يقل أهمية عما تحققه النواحى الاجتماعية والتعليمية وسائر النواحى التربوية، لأن الطفل يكتسب القيم الوجدانية شيئا فشيئاً عن طريق الفنون الأدبية. وتأثير الأدب على الطفل يعكسه عشق قيم الجمال وتذوقها، وما نقدمه للأطفال ما هو إلا وسائل للتعبير تعتمد على الأصوات والألفاظ والخطوط، وهى تساعد الفرد الناشىء فى تعميق رؤيته الجمالية وعاداته وإتجاهاته ومعلوماته ومهاراته، فى صلتها بالكون الذى يحيط به، والعلاقات التى تنتظره، وفى الاندماج مع عالم الكبار والدخول إلى ميادين الحياة، إن المدرسة بمناهجها والكتب

بمعارفها تعطى الطفل البناء المعرفى، أما الأدب بفنونه فيعطى الطفولة النمو الوجدانى.

الطفولة بين مفاهيم التربية و«مفاهيم الأدب»:

عرضنا فى المدخل السابق أهمية الأدب بالنسبة للطفل، ومدى حاجة البشرية لإشباع الحاجات الروحية فى نفوس الأجيال الناشئة، وبعد أن طغى الجانب المادى فى الحضارة الحاضر على أمل الإنسانية فى إقامة الدعائم الروحية لحضارة جديدة تأخذ بالجانبين المادى والروحى جميعاً، وقد ألح المبحث فى البداية إلى ضرورة فصل العوامل المعرفية عن العوامل الوجدانية عند تقديمنا لمضمون أدبيات الطفل، وبالتالى يكون محور الأدب الموجه للطفل هو تعميق وترقية الجانب العاطفى واللغوى عنده. ونستعرض فيما يلى عدة مفاهيم تدور حول الجوانب التالية:

(أ) التربية (ب) الطفولة (جـ) الأدب

وذلك من خلال استقراء آراء بعض رجال فلسفة التربية وعلماء اللغة والأدب نظراً لأهمية تأثير كل جانب منها فى الجانب الآخر بالسلب والإيجاب من ناحية، ولأهميتها فى تحديد مجال البحث من ناحية أخرى:

الطفولة ومفاهيم التربية:

خلق الله سبحانة وتعالى الإنسان فى أحسن تقويم، وميزه عن سائر المخلوقات بالعقل والتفكير والحواس التى تنبض برقة المشاعر وفيض الأحساس، يقول فى ذلك عز من قائل: (الذى أحسن كل شىء خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) الآيات (٧-٩) سورة السجدة. لقد خلق الله الإنسان وهيأ له كل الأسباب للبحث فى الكون، باعتباره خليفة الله فى الأرض المكلف بحمل الأمانة بأعبائها العظام (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان). الآية (٧٢) سورة الأحزاب. وفى سبيل قدرة الإنسان على حمل التكاليف الثقال زوده الله سبحانه بوسائل الاتصال التى يتمكن عن طريقها من بناء جسور بينه وبين من حوله، ومن ثم القدرة على الإدراك والانتباه والتذكر، والتمييز بين المتناقضات، قال سبحانه وتعالى:«ألم نجعل له عينين، ولسانا وشفتين، وهديناه النجدين» الآيات (٨-١٠) سورة البلد. ومما لا جدال فيه أن الطفل يولد وقد زود بكافة وسائل الاتصال للتعامل مع كل المحيطين به ومن ثم تنمو تلك الحواس. ويلعب أول دور ملحوظ فى أدوار التربية من خلال الوالدين، ففى الحديث النبوى يقول الرسول

صلى الله عليه وسلم:« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه».[١٤] واكتساب القيم والاتجاهات والسلوك تجيء من خلال روافد التربية إذ يتعلم الطفل، ويدرك ويتأثر، ويختزن طوال مراحل طفولته الأولى أساس تلك القيم لمستقبل ينتظره. وقد قال الإمام على بن ابى طالب «علموا بنيكم أخلاقاً غير أخلاقكم، لأنهم خلقوا لزمان غير زمنكم».[١٥] ولو استعرضنا معنى التربية لغة ومعنى، سيطالعنا الأصل اللغوى للكلمة فى مادة (ربب) ففى لسان العرب لابن منظور تجيء ربب بمعنى: «الرب يطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربى والقيم والمنعم.. وربيت القوم سستهم أى كنت فوقهم»[١٦] وفى الحديث لك نعمة تربها أى تحفظها وتراعيها وتربيها، كما يربى الرجل ولده.. وفى حديث ابن ذى يزن: أسد تربب فى الغيطان أشبالاً، أى تربى وهو أبلغ منه ومترب بالتكرير الذى فيه، وتربيه وأربته ورباه تربية على تحويل التضعيف وترباه على تحويل التضعيف أيضا أحسن القيام عليه ووليه كان ابنه أو لم يكن[١٧]. وينسب التهانوى صاحب كشاف اصطلاحات الفنون – الربانى إلى الرب فيذكر: الرب هو إنشاء الشىء حالاً فحالاً إلى الحد التام[١٨] وقد قال الإمام البيضاوى (–٦٨٥هـ) إن: الرب فى الأصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشىء إلى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به تعالى للمبالغة، وهو متأثر فيما أرجح بمقولة وردت فى هذا المعنى

بكتاب مفردات الراغب الأصفهانى(-٥٠٢) هى: الرب فى الأصل: التربية، وهو إنشاء الشىء حالاً فحالاً إلى حد التمام[١٩]. وتنطبق تلك المقولة على تربية الطفل من حين ولادته إلى أن يبلغ ويشب. ومن قبلهما قال أبو حاتم الرزاى(-٣٢٢هـ) فى كتاب الزينة: الرب من التربية، واشتقاق الرب من التربية، يقال رباه يربيه تربية وربية يربيه تربيباً، إنما قيل للمخلوق رب الشىء لأنه يسوسه ويديره.. والتربية هى القيام عليه بالإصلاح حتى يبلغ المراد ومن أجل ذلك سمى الربائب لأنهم يتربين فى حجور أزواج أمهاتهن فكأنهم قاموا بإصلاحهن حتى بلغوا(٢٠). قال الله عز وجل:«وربائبكم اللاتى فى حجوركم» الآية ٢٣ سورة النساء.. وغير الأصل اللغوى لمادة (ربب) فى المعاجم عند علماء اللغة، نستطيع أن نستعرض بعض المفاهيم الاصطلاحية للتربية فى القديم والحديث. فقد وقف أصحاب المذهب الفلسفى المثالى عند مفهوم التربية موقفاً يتلخص فى إعداد العقل السليم فى الجسم السليم على نحو ما قال بذلك افلاطون وأرسطو. وتعنى التربية عند الفيلسوف الطبيب ابن سينا «سياسة» وقد عبر عن ذلك بمقولته التى ضمنها كتابه «السياسة»: سياسة الرجل أهله وولده[٢١] . أما رجال التراث الشعبى فينظرون إلى التربية على أنها عملية المحافظة على التراث الثقافى عن طريق نقله من جيل إلى جيل. وقد دارت معظم آراء علماء العلوم الإنسانية المحدثين حول دمج

مفهوم التربية فى عمليات التعلم والتكيف واستثمار قدرات الإنسان، ومفهم جون ديوى(١٨٥٩ - ١٩٥٢م) للتربية يعد من المفاهيم الأكثر قبولاً وذيوعاً إذ تعنى التربية عنده: الخبرة التى تؤدى إلى مزيد من كسب الخبرة[٢٢].

وليس من السهل اليسير تحديد مفهوم جامع مانع للتربية، لأن التربية تخضع فى أساسها لعوامل بناء تتسم بالتنوع والتغير وفقاً «للتغيرات التى تطرأ على المجتمع والذى يخضع بدوره للعوامل البيئية (المكانية والزمانية) حيث إن هناك ارتباطاً عضويا وثيقاً بين التربية والمجتمع الذى توجد فيه وتقوم فيه بوظيفتها».[٢٣] فعملية التربية تنصرف فى جوهرها إلى «إعداد الناشىء إعداداً يساعده على أن يصبح فرداً قادراً صالحاً لنفسه وذويه، ومتجاوباً مع مجتمعه، منتجاً فيه عن طريق تنمية البدن السليم وتهذيب النفس وترقية المشاعر والوجدان وتثقيف الفكر وتحصيل المعارف)[٢٤]. وقد تنبه أدباء اللغة العربية الأوائل لأهمية التربية فى إطارها التهذيبى فقال بعضهم[٢٥]: أطبع الطين ما كان رطباً وأغمز العود ما كان لدنا وقال الشاعر

إذ المرء أعيته المروءة ناشئاً   فمطلبها - كهلاً- عليه شديد(٢٦)

وشبيه به قول البوصيرى:

والنفس كالطفل ان تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وقال شاعر من شعراء الحكمة:

وإن أدبتـــه فى الصـــبـــا — كـالعود يسقى الماء فى غرسـه
حـتى تراه مـورقـا ناضـراً — بعـد الذى أبصـرت من يبسـه
والشـيخ لا يتـرك أخـلاقـه — حـتى يوارى فى ثرى رمـسـه

ولم ينفصل مفهوم تربية الطفل بمعناه اللغوى أو الاصطلاحى فى الحضارة الاسلامية عن الآداب العامة، ونعنى بها السلوك والتهذيب والتأديب ورعاية الناشئة بأدب الدنيا والدين، ولم تقترن التربية كذلك فى - تاريخ الأدب العربى- بالأجناس أو الأنواع الأدبية بأوجه الشبه أو التماثل لمفهوم اصطلاحى مشترك الأغراض أو معان لغوية تجمعها، ولكن الذى لاشك فيه أن الأدب والتربية اشتركا معا فى توجيه الأغراض الخلقية والقيم السلوكية الايجابية التى حث عليها الدين والقيم العليا، كما أن العمليات التربوية تستنبط من المفاهيم اللغوية العناصر التى تمكنها من رعاية الأطفال والناشئة من مثل «المحافظة على فطرة الناشىء ورعايتها.. تنمية مواهبه واستعداداته كلها وهى كثيرة متنوعة.. توجيه هذه الفطرة وتلك المواهب كلها نحو صلاحها وكمالها اللائق بها.. بالتدرج فى هذه العملية وهو ما يشير إليه البيضاوى بقوله «شيئا فشيئا» والراغب بقوله: «إنشاء الشىء حالا فحالا..».[٢٧] وفى المجتمع العربى القديم، نهض بمهمة التربية فى الأعم والأغلب المربيات والأمهات والجدات والمعلمون والمؤدبون.

نخلص مما سبق إلى أن التربية تخضع للتغيرات المجتمعة، كما

تقوم التربية الحديثة فى أساسها على بناء ورعاية الطفل من خلال البيئة الأسرية والبيئة المدرسية بمناهجها وأساليبها التربوية وما تبثه مؤسسات المجتمع من غرس لمبادىء وأفكار وتصورات وآداب عامة، غاياتها التعليم والتهذيب ووفقا للقيم السائدة والمتغيرة فى أى مجتمع. وفى نهاية هذا المبحث الفرعى أعتقد أن التربية بمجالاتها وأساليبها وأدوارها تختلف عن مهمة الأدب ووظيفته الفنية والجمالية بالنسبة للطفل، لأن الإبداع الفني والأدبى يتجه فى الأصل نحو وجدان الناشىء الصغير، يفجر طاقاته ويحفز مشاعره ويشجع ملكاته الابتكارية من خلال شحنة وجدانية أدبية تجلب المنفعة والبهجة وتستهدف تحريك المنهج المدرسى المحدد - والجاف - باتساع رقعته من الاطار التعليمى وفق برنامج أعد سلفا إلى إطار مدرسى متكامل يتضمن شحنات للعقل والوجدان فى نسق واحد يتناغم مع سائر المؤسسات المحيطة فى نطاق المدرسة وخارجها. وليس ذلك بعسير فدروس الآداب الفرعونية القديمة «بما تضمنته من شعر ونثر كان لها تقديرها البالغ فى المناهج التعليمية، وكانت دروس الأطفال تبدأ مع التلميذ فى المرحلة التعليمية الأولى بفقرات بسيطة، ثم يواصل دراستها فى مرحلته المتقدمة بنصوصها الكاملة».[٢٨] واستقراء معظم البرديات المصرية القديمة التى تتضمن الحياة التربوية والتعليمية فى مصر الفرعونية يدلنا على دقة ذوق ووعى بالغ عند

اختيار المصرى القديم للنصوص الأدبية، فهى تبتعد عن الغموض، والتعقيد، والتكرار فى غير موضعه، والتكريس والنصح المباشر. كما كانت المدرسة التربوية المصرية القديمة تشجع فى الطفل الجانب الإبداعى وتعد الناشىء «بالاشتراك فى الهيئة الحاكمة، وبخير أسمى وخلود يذكر لمن يستطيع أن يؤلف كتاباً يطالعه الناس ويلتمسون فيه سحره.. سحر بيانه وحكمته»(٢٩).

مفهوم الطفولة :

أوضح الاستقراء السابق لمفاهيم التربية طبيعة العلاقة بين التربية والأدب ونستعرض فيما يلى المفهوم اللغوى والاصطلاحى للطفولة باعتبارها الشريحة(٣٠) الإجتماعية محور البحث الأدبى فى موضوع الكتاب، فالطفولة مرحلة عمرية من عمر الكائن البشرى تتسم بأطول وأدق مرحلة طفولة بين سائر المخلوقات.

قال الله تعالى فى القرآن الكريم فى شأن معجزة خلق الإنسان «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً» الآية٢ سورة الإنسان، وفى شأن كمال خلق الإنسان:«لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» الآية٤ سورة التين، «الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى» الآيتان ٢ . ٣ سورة الأعلى، وعلمه سبحانه البيان: «الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان» الآيات(١-٤) سورة الرحمن، وميزه عز وجل بالحواس: «ألم نجعل له عينين ولساناً

وشفتين وهديناه النجدين» الآيات ٨: ١٠ سورة البلد. تدلنا الأيات البينات السابقات عن معجزة خلق الإنسان الذى كلفه الله عز وجل بحمل الأمانة والنهوض بتبعاتها الثقال العظام، وقد زوده - سبحانه - بالعقل والسمع والبصر والفؤاد، وسائر الحواس التى تؤهله للإدراك والمعرفة، ومنذ أن قال سقراط(-٤٦٩ق.م) كلمته المشهورة: إعرف نفسك، ومحاولات الباحثين لم تنقطع بحثاً عن حقيقة الإنسان فى جانبيه المادى والروحى.. وقد شهد القرن الحالى ثورة معرفية شملت كل جوانب الحياة، ثورة حققت للإنسان فرصا أفضل للعيش والسيادة على الأرض كخليفة لله عليها. وبعد الإشباع المادى لإنسان الحضارة المادية الحاكمة وبآثارها الطاحنة، رأيناه يتوجه - ضمن توجهاته المتعددة - إلى الطفولة ليعيد تشكيلها باعتبار الطفولة بداية الحياة، ولقد ساعده فى ذلك ما قدمته الدراسات البيولوجية والنفسية من براهين على أن الطفل هو أب الرجل، وأن الأمة كالفرد. من هنا أخذ العلم المعاصر يبحث فى جلد ودأب حول الطفولة حيث بداية تشكل الإنسان، فمع بداية هذا القرن، زاد اهتمام الدارسين بالإنسان فنشأت علوم متخصصة تعنى بالظاهرة الإنسانية من جوانبها المتعددة، النفسية والاجتماعية والصحية والبيولوجية والأنثروبولوجية. وبفضل الاكتشافات والنتائج المذهلة لهذه العلوم واستطاع المؤلف أن يفيد منها فى البحث، ويأخذ عنها فى إطار

الاتجاه الجديد المسمى بوحدة العلوم تجاه الظاهرة موضوع البحث.

والإنسان الفرد فى جانبيه المادى والروحى، تتصل به ككائن حى عاقل العلوم الإنسانية: علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم التى تبحث فى أسرار خلقه، وتنشئته الاجتماعية وتطبعه الاجتماعى، كما تدرس الإنسان فى مراحل نموه من المرحلة الجنينية إلى مرحلة الشيخوخة، وفى علاقته مع البيئة بشقيها المادى، والثقافى. كما حدث تقدم مماثل فى علم النفس الارتقائى وما صاحبه من بحوث عميقة لمراحل النمو، وأهمها ما تعلق بالوراثة والذكاء واللغة. كما قامت على دراسة سيكولوجية اللغة مباحث مستحدثة، أبرزها مبحث علم اللغة النفسىPsycholanguistics الذى يدرس السلوك اللفظى للمتكلم، أى اللغة فى نسق مواز مع دراسة نشاط العقل الإنسانى، أى الارتباط بين اللغة والفكر، وهذا ما أشار إليه الشاعر العربى بقوله:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ومرحلة الطفولة هى فترة الحياة التى تبدأ منذ الميلاد حتى الرشد، وهى تختلف من ثقافة إلى أخرى، فقد تنتهى الطفولة عند البلوغ، أو عند الزواج، أو يصطلح على سن محددة لها(٣١).

كما قسم علماء علم نفس النمو مراحل الطفولة إلى أربع مراحل هى:

(١) المرحلة الجنينية.

(٢) مرحلة الطفولة المبكرة.

(٣) مرحلة الطفولة الوسطى.

(٤) مرحلة الطفولة المتأخرة.

ومع تنوع الخصائص المميزة لكل مرحلة من المراحل السابقة، وجد الاختلاف غير الجوهرى حول عدم اصطلاح العلماء لتحديد سن محددة تنتهى عندها آخر مرحلة من مراحل الطفولة، وأسباب ذلك تعود إلى الفروق الفردية بين النوعين الذكر والأنثى من ناحية، ولتغير العوامل البيولوجية والبيئية من ناحية أخرى. ومهما يكن من أمر فإن وصول الطفل الناشىء إلى سن البلوغ ككائن بالغ عاقل هو ما يمكن أن يقف بنا عند نهاية مرحلة الطفولة.

الطفل لغة:

وردت لفظة الطفل فى القرآن الكريم أربع مرات: اثنتان منها تشيران إلى المرحلة المبكرة قال تعالى «هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا» الآية ٦٧ سورة غافر.«نقر فى الأرحام من نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم» الآية(٥) سورة الحج. وواحدة للمرحلة المتوسطة من عمر الطفل، قال عز من قائل: «أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات

النسـاء» الآية(٣١) سـورة النور. والأخيـرة لمرحلة الطفـولة المتـأخـرة «وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليسـتـأذنوا كمـا اسـتـأذن الذين من قبلهم» الآية ٥٩ سورة النور. وفى لسان العرب لابن منظور تفصيل للأصـول اللغوية للفظة طفل فـيـذكـر: قـال الزجـاج: «طفـلاً هنا فى موضع أطفال يدل على ذلك ذكر الجماعة وكان معناه ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً.. والطفل والطفلة: الصـغيران، والطفل الصـغير من كل شىء، والطفل بالفتح الرخص الناعم، والجمع أطفال وطفول»[٣٢] والطفل الصـغـيـر من كل شىء إذا بين: الطفل والطفـالة والطفـولة والجمع أطفال[٣٣] . والطفل لغـة في المصـبـاح المنيـر بمعنى الولد الصـغيـر من الإنسـان والدواب، ويكون الطفل بلفظ واحد للمـذكـر والمؤنث والجمع.. ويبقى هذا الاسم للولد حتى يميز ثم لا يقال له بعد ذلك طفل، بل صبى وحزور ويافع ومراهق وبالغ، وفى التـهذيب يقـال له: طفل إلى أن يحتلم. وفى مـختـار الصـحـاح الطفل بمعنى: المولود وولد كل وحـشـيـة أيضـاً والجـمع أطفـال. وقـد يكون الطفل واحـداً وجـمـعـاً.. والطفل بفـتـحـتين والطفـيلى الذى يدخل وليـمـة لم يدع إليها[٣٤]. وعلى شـاكلة مـثل هذا التـوارد والتـوافق والتـرادف وردت لفظة الطفل فى ثنايا أمهات كتب التراث الشـعرى واللغوى بخاصـة، والنتاج الفكرى بعامة، وأن اختلف المسمى من طفل إلى صبى أو من ولد إلى غلام، وقد أقسم الله عز وجل بالولد فى سورة البلد(ووالد وما

ولد) الآية ٣ سورة البلد.

وفى اللسـان: الولد هو الصـبى يولد.. والصـبى يدعى طفـلا حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم، وفى مادة (صبا)، الصبى: الغلام والجمع صبية وصبيان، والمصدر الصبا، والصبوة: جهلة الفتوة.. والصبا من الشوق يقال منه تصابى وصبا وصبا يصبوه وصبوا، أى مال إلى الجهل والفتوة والصبا ريح تستقبل البيت، قيل لأنها تحن إلى البيت[٣٥] . وتدور مادة (ولد) فى سياق القرآن الكريم حول معان وموضوعات عديدة غير أننا نلخص اقتران مادة (ولد) فى المعنى القرآنى بأمرين: أولهما: المال باعتبار أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا وهما أيضاً الثروة فى جانبيها المادى والبشرى، والأمر الثانى: التأكيد على رفض أن يكون للرحمن ولد، وقال الله عز وجل «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» الآية ٨١ سورة الزخرف مما يدل على إعطاء البنوة - تعالى الله عنها علوا كبيراً - مكانة سامية «وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً» الآية٩٢ سورة مريم. وتعنى لفظة الصغار: مصدر الصغير فى القدر، لأن الصغار لغة فى اللسان: «الصغار بالفتح الذل والضيم وكذلك الصغر بالضم والمصدر الصغر بالتحريك.. والصغر ضد الكبر.. ويقال لصبى من صبيان العرب إذا نهى عن اللعب: إنه من الصغرة، أى من الصغار، وأرض مصغرة نبتها صغير لم تطل، والتصغير للاسم والنعت يكن شفقة وتحقيراً

ويكون تخصيصاً»[٣٦] وقد قال الله تعالى فى مناسبة الدعاء للوالدين بالرحمة جزاء تربية الولد صغيراً: «ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً» الآية ٨ سورة العنكبوت، أما الغلام لغة فى المصباح المنير: فهو الابن الصغير، وجمع القلة غلمة بالكسر، وجمع الكثرة غلمان، ويطلق الغلام على الرجل مجازاً.. والولد: بفتحتين كل ما ولده شيء ويطلق على الذكر والأنثى والمجموع.. ويقال للصغير مولود ويطلق على الذكر والأنثى والمثنى والمجموع.. ويقال للصغير مولود لقرب عهده من الولادة ولا يقال ذلك للكبير لبعد عهده عنها[٣٧]. وقد ربطت العرب قديماً بين صغار الإبل (دردق) وصغار الإنسان، وقد دعى الأعشى إلى وليمة فقال شعراً فى آل المحلق:

نفى الذم عن آل المحلق جفنه كجابية الشيخ العراقى تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل (دردق)

وتدور مادة (بنى) فى اللسان بين معانى البنوة، قال الزجاج: «ابن كان فى الأصل بنوا أو بنوة. وجمع الابن أبناء، وجمع البنت بنات والبنوة مصدر الابن يقال: ابن بين البنوة، وفى التنزيل الحكيم: من سورة هود: «هؤلاء بناتى هن أطهر لكم». وقال لبيد فى معنى الشرف:

فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلامها

وقال عمرو بن كلثوم فى معلقته:

إذا بلغ الفطام لنا صبى تخر له الجبابر ساجدينا(٣٨)

فالصبى هو المولود حتى البلوغ، والغلام: الصبى من حين يولد إلى أن يشب[٣٩].

الطفولة والعلوم المعاصرة:

توفرت العلوم الإنسانية الحديثة للعناية بدراسة الطفولة تربية وتعليماً و تثقيفاً بإخضاع الأطفال فى مراحل نموهم المتدرجة لمناهج وأدوات التفكير العلمى وصولاً إلى فهم الطفولة، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وأثمرت تلك الجهود العلمية عن ظهور علوم مستحدثة معاصرة مثل علم نفس النمو أو علم النفس الارتقائى وعلم اللغة النفسى (علم نفس اللغة) كمجالات جديدة من مجالات ميادين علم النفس.

وتطورت كذلك ميادين علم الاجتماع لدراسة الطفل فنشأ أخيراً علم اجتماع نمو الطفل كما عنى علم الانثروبولوجيا خلال العقود الأخيرة بالطفولة وعلاقة الجوانب الثقافية بشخصية الطفل وسلوكه. واتسمت الجهود المعاصرة في مجال دراسات الطفولة بالتخصص

الدقيق كامتداد فكرى للصيحة القديمة التى أطلقها سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ق.م) يوم قال: (إعرف نفسك) والصيحة التى أطلقها جان جاك روسو(١٧١٢ - ١٧٧٨م) يوم قال: (إعرفوا الطفولة)، إن هذا الكائن الفريد الذى اسمه الطفل، كان دائماً ولا يزال موضع الاهتمام والتأمل والدراسة من قبل المحيطين به ومن قبل كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء، وقد حظيت العلوم الإنسانية بالنصيب الأكبر فى ذلكم الاهتمام، والواقع أن التعرف على الإنسان المحبب والمستهدف طفل الحاضر - هو رجل المستقبل - يتطلب عملياً الأخذ بالدرس العلمى المتكامل، فليس بوسعنا فهم عقل أو وجدان الطفل من خلال نظرة علمية منفردة لأحد العلوم الإنسانية أو الطبيعية بل من خلال جهود علمية تتضافر عليها «كل العلوم التى تعنى بالإنسان وأحوال الاجتماع البشرى، وتعتبر دراسة الأطفال واحدة من المعالم التى يستدل بها على تبلور الوعى العلمى فى المجتمع، لأن الوعى العلمى الذى يتشكل نتيجة لشيوع عمليات التفكير والبحث العلمى يقود إلى تكوين أفكار مرنة وموضوعية ومتكاملة وشاملة عن الإنسان وواقعه ومستقبله، وتعتبر دراسة الطفولة جزءا من الاهتمام بالواقع والمستقبل معاً»[٤٠].

والأدب باعتباره تجسيداً فنياً للحياة والفكر والوجدان، من المجالات المستحدثة من حيث التأصيل والابداع – لجمهور الخبراء وللطفولة – لأن الأدب نثره وشعره ليس حكرا على الكبار وحدهم فالطفولة هي جمهور الأدب في المستقبل بمثل ما هي نواة الأدب في الحاضر، ولأدبيات الطفل أعظم الأثر في إعداد الأجيال الناشئة، بما لأدب الأطفال من دور ثقافي متدرج مع قدرات الأطفال ومداركهم ومراحل نموهم العقلي والنفسي والوجداني.

يقول الزمخشري[41] في معنى قوله تعالى« ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين» سورة البلد، ألم نجعل له عينين يبصر بهما المرئيات، و«لساناً» يترجم به عن ضمائره، و«شفتين» يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق.. «وهديناه النجدين» القدرة على التمييز بين الأشياء ومعرفة الحق من الباطل. إنها حواس الطفل التي خلقها الله له، وعن طريق هذه الحواس يدرك الطفل ومن ثم يحس ويتعلم ويتنبه ويتذوق. ويفسر العالم السويسري جان بياجيه (١٨٨٦– ١٩٨٠م) هذا المفهوم بأنه يعني انتقال الطفل وبالتدريج من «محاولات الفهم والتفكير إلى المعاني المجردة، أو من المحسوسات إلى التجريدات»[42] والطفولة في النهاية هي ثمرة القلب، وعز الأهل، ومهجة النفس، وسعادة الأسرة، وأغلى ثروات الأمة لأنها تعكس الصورة الواقعية لمستقبل الأمة ورقي البشرية. ولاشك أن الأدب

بفنونه وأهدافه مؤهل فى كل زمان ومكان لتعبيد الطريق الصحيح أمام الأجيال الناشئة، متعة ومنفعة فوق دروب الحياة المنشودة.

الأدب والطفولة :

تعرضنا فيما سبق لبعض المفاهيم اللغوية والاصلاحية «للتربية»: بغرض إيضاح أوجه الاتفاق والاختلاف مع «الأدب»، إذ الفروق بين التربية والأدب لا تعنى التعارض بينهما فهناك علاقة ترابطية فى بعض مقاصدهما كما يستهدف كلاهما الإنسان، لذلك تطلب المدخل إلى أدبيات الطفل استقراء المفاهيم التربوية فى القديم والحديث مع الوقوف عند معاجم اللغة وآراء بعض علماء الدراسات الإنسانية لمفهوم أو تعريفات الطفولة مع الاستدلال بالشواهد القرآنية ونتائج علم النفس فى تحديد مفهوم الطفولة. لاجدال حول أهمية الأدب – شعره ونثره – فى نقل تراث البشرية وخبراتها من جيل إلى جيل، والأطفال هم القطاع الممتد من عمر الإنسان المؤهل بخاصيتين هامتين تجاه الأدب وتذوق فنونه. أولاهما الاستعداد الذاتى والفطرى للاستمتاع بفنون الأدب والاستجابة لغاياته وتأثيراته، والثانية النقاء الوجدانى والقدر على التخيل لأن الطفل «الذى يترعرع فى بيئة منظمة مرتبة، مؤسسة على كل القيم الجمالية يستطيع عن طريق تفاعله مع هذه البيئة أن يتشرب منها أسس الجمال، وبالتالى

يكتسبها في نفسه، وستنعكس هذا الأسس حتمافي سلوكه مع الآخرين، وبتنظيم العالم الخاجى فى إيقاع وتوافق، كالإيقاع والتوافق الذى نجده فى الموسيقى والرقص، الألعاب، والشعر والتصوير والنحت، وهذا الإيقاع والتوافق نفسه يمكن أن يكون حصيلة أساسية فى كيان الفرد».[٤٣] إنها فى النهاية الثمرة الوجدانية بحيث تنمو حساسية الفرد التى تجعله يستجيب استجابة انفعالية كي يستمتع وينتفع بالأدب أو الفن. وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن الأدب فى – إطاره الإيقاعى – كالإيقاع الموسيقى فى الشعر يضيف إلى خيال الطفل مدركات جديدة كما يعمق من تفكيره ويغذى مشاعره. والإبداع الأدبى الموجه أساساً للطفل، يسعد هؤلاء الأطفال ويسليهم وبالتالى «يطور وعيهم وطريقة فهمهم للحياة.. وينمى إدراكهم الروحى، ومحبتهم للجمال».[٤٤] إن الاشباع العاطفى وإثارة الانفعال الإيجابى بالأدب عند الطفل من خلال التربية الوجدانية يحقق أهم غاية تستهدف بناء الإنسان فالأدب فن تعبيرى يحرك المشاعر ويقوم على التذوق والاستجابة وتنمية الإدراك والخيال.

يقول الشاعر أحمد زكى أبو شادى فى قصيدة له تحمل هذه المعانى أنشدها فى مناسبة ميلاد نجل المرحوم الأديب كامل كيلانى[٤٥] :

والطفل عبد للخيال وسيد   فى الناس يحكم آمراً مأموراً

والأدب بفنونه الجمالية ما هو إلا وسيلة من وسائل التعبير عن انفعالات الإنسان وعواطفه وخبراته، وكلما نما الطفل يمكنه أن يكتسب قيماً من بيئته. والنتاج الأدبى الحاضر لم يفقد نظرته للقيم العليا التى حفظها الضمير الجمعى للأمة، غير أن الأدب الإنشائي أو الوصفى لم يحظ باهتمام خاص منه كى يصوغ قواعد أدب الطفل ومعاييره. والطفل ذلك الكائن البشرى النقى المتخيل الواعد يمثل الشريحة الاجتماعية القاعدية في أى مجتمع، ورقى هذا المجتمع أو ذاك يأتى نتيجة منطقية لما تقدمه مؤسسات المجتمع للأجيال الناشئة من إعداد تربوى متكامل، أو بعبارة أخرى من خلال بناء معرفى ووجدانى متناغمين. إن النزعات التجديدية فى ميادين الفن ، الأدب، السياسة، والفلسفة وغيرها من الاتجاهات التى واكبت منجزات العلم وتعقيدات الحضارة المادية الحاكمة، من أهم الدوافع التى مهدت التربة لبداية جادة وجديدة تستهدف تحرير الأجيال الناشئة من سلبيات الحضارة المادية ومن الإسار التاريخى للنظم أو البرامج المدرسية الضيقة الجامدة، إلى آفاق منهجية جديد تخاطب الوجدان بميزان مساو للعقل، بحيث يأخذ الطفل فى عملية تعلم واسعة المدى يذهب فيها الخيال إلى أعماق الماضى السحيق، وينطلق خارج هذا العالم ويتعرف على جوانب الحياة.. وهنا يأتى «دور أدب الأطفال بأجناسه الأدبية ذات المغزى الروحى والوطنى، لينمو الصغير من

حالة التمركز حول ذاته إلى كائن اجتماعى يتمركز حول الآخرين، ويتحول من المتعة إلى الاحتمال إلى المشاركة الوجدانية، ومن المشاركة الوجدانية إلى الإحساس العقلى بشعور الآخرين»[٤٦].

وعندما نستقرىء المناهج المدرسية فى النظريات التربوية المعاصرة سنكتشف تركيزها على الاهتمام بالجانب الوجدانى الذى أهمل طويلاً، ففى ألمانيا الغربية – وهى من الدول الحضارية الكبرى فى العالم – ترتكز مناهجها المدرسية حتى الصف السادس من التعليم الأساسي على ما يلى: الدين، اللغة، الموسيقى، الفن، التاريخ، الاجتماع، الجغرافيا.. ثم يأتى التخصص بعد ذلك أى بعد الانتهاء من إجازة المستوى الابتدائى (الحلقة الأولى من التعليم الأساسى)[٤٧]. ونحن فى ضوء ذلك فى أشد الحاجة إلى الأدب الوجدانى الموجه للطفل، ليسير هذا الجانب الفعال فى نسق مواز للبناء المعرفى. وإذا كان الاهتمام السائد يتناول أوجه الرعاية الجسمية والتعليمية فإن البناء الوجدانى للطفل يجب أن يدخل دائرة اهتمامنا ومحتوى مناهجنا وأساليب تربيتنا المدرسية والأسرية، وقد رأى ابن المقفع قديماً أن حاجة الفرد للأدب أسرع للعقل من الغذاء للجسد يقول فى مقدمة الأدب الصغير: «ليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل، والعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب، وبالأدب تنمو العقول وتزكو..»[٤٨].

فالأطفال صفحات نقية من كتاب البشرية المفتوح بالبراءة والخيال: ومشاركتنا الوجدانية للطفل، وفهمنا لاتجاهاته وميوله، يجب أن تجعلنا نستخدم الأدب بفنونه ومقاصده كي يندمج الطفل في الحياة، فعن طريق التربية الوجدانية يتهذب ذوق الطفل ويصقل، وتنمو ميوله الابتكارية. ويكتشف قيماً إيجابية أكثر ارتباطاً بالمجتمع وأكثر اندماجاً - من بعد - مع عالم الشباب والكبار. إن ما يكتسبه الأطفال من عشق قيم الجمال وتذوقها لابد وأن ينتقل في حياة الإنسان من التخصيص المنصب على الصورة، والتمثال، وقصيدة الشعر إلى ميادين الحياة نفسها.. إن ما نعلمه للأطفال ما هو إلا وسائل للتعبير تعتمد على الأصوات والألفاظ والخطوط والألوان، وهي تساعد الفرد في تعميق رؤيته الجمالية، وعاداته، واتجاهاته، ومعلوماته، ومهاراته في صلتها بالكون الذى يحيط به(٤٩). إن النتائج العملية لعلم النفس الارتقائي - في العقود الأخيرة - تعطينا مجموعة حقائق هامة، كي نغير من رؤيتنا المحدودة لعالم الطفل وخياله، ولعل تراثنا الشعبى كان الأسبق في حدسه وفي صدق مقولاته من أن (الطفل أب الرجل) (اسأل عن المنبت) (هذا الشبل من ذاك الأسد). وأجدادنا الأوائل هم في نشأتهم وفطرتهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، وهم خالدون بيننا بعبقريتهم الشعرية واللغوية والأدبية، أما ناشئة اليوم - حفدة هؤلاء الأجداد - فيقف

المجتمع بنظمه التربوية عاجزاً عن استثمار ثروته البشرية الحاضرة. ويكفى أن نطرح أمام ضمائرنا وعقولنا النتائج العملية التى أحرزتها دراسة ميدانية هامة حول الطفولة وخصائصها الدالة أجراها عام ١٩٦١ وايزبرج وسبرنجر Weisberg & Springer التى أسفرت عن أن الأطفال يتميزون بالخصائص الآتية: «البراعة فى التخيل، الاستجابة للإيقاع والحركة والألوان، قوة صورة الذات، سهولة استدعاء الخبرات المبكرة»(٥٠).

علاقة مفاهيم الأدب بالطفولة :

غاية هذا المبحث الوصول مع نهايته إلي مفهوم علمى لأدب الطفل كنوع أدبى يتفرع من شجرة الأدب الكبرى، وقد تطلب ذلك بداية الاستقراء لكل من :التربية المعاصرة بعامة، والأدب بخاصة. وبقى أن نطوف مع «الأدب» لفظة ومعنى لنكمل بذلك الحلقة المحورية فى مجال أدبيات الطفل تمييزاً لهذا الجنس الأدبى المستحدث عن برنامج التعليم المدرسى من ناحية، وعن سائر النتاج المعرفى والتاريخى والثقافى الموجه للطفل من ناحية أخرى. بادىء ذى بدء نقف أمام مسلمة أساسية وهى أن علماء اللغة والأدب لم يدونوا عبر التاريخ الأدبى أى تعريف (محدد) للفظة «الأدب» برغم السمة الإنسانية المشتركة فى نتاجه الإبداعى - كما أن علماء اللغة والأدب والنقد استطاعوا تقعيد وتقنين أشكاله التعبيرية وفقاً لقواعد ومذاهب ثابتة

ومتجددة ، لكنه – برغم هذا وذاك – تبقى للأدب خصوصيته كابداع فنى خلاق يتصل بالشعور والادراك معاً .

وقد استعرض الدكتور مجدى وهبة – غير مرة – فى كتابه «معجم مصطلحات الأدب» معنى الأدب فى استقراء اصطلاحى لدوران «لفظة الأدب» فى تاريخ أدبنا العربى فيذكر:

الأدب :

١– التهذيب والخلق: كقوله صلى الله عليه وسلم : أدبنى ربى فأحسن تأديبى. (صدر الإسلام).

٢– التعليم: واشتق منها بهذا المعنى (المؤدبون) الذين كانوا يلقنون أولاد الخلفاء الشعر والخطبة وأخبار العرب وانسابهم فى الجاهلية والإسلام (عصر بنى أمية).

٣– أدب السلوك: التى يجب أن تراعى عند طبقة من الناس... (أدب الكاتب لابن قتيبة).

٤– كل المعارف غير الدينية التي ترقي بالإنسان اجتماعياً وثقافاً.. (إخوان الصفا فى القرن الرابع للهجرة).

٥– جميع المعارف دينية وغير دينية.. (ابن خلدون ٨٠٨ هـ).

٦– التهذيب والتعليم معاً. مثال ذلك (الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع).

٧- الكلام الإنشائى البليغ الذى يقصد به التأثير فى عواطف القراء والسامعين، الأدب الإنشائى (المعنى الخاص منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى).

٨- كل ما ينتجه العقل والشعور (المعنى العام منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى)[٥١].

ويقول الدكتور طه حسين فى فقرة من كتابه «فى الأدب الجاهلى» حول معنى الأدب فيذكر: «ليس لدينا نص صحيح قاطع يثبت أن لفظ «الأدب» وما يتصرف منه من الأفعال أو الأسماء كان معروفاً أو مستعملاً قبل الإسلام أو إبان ظهوره.. ثم كان الأدب: ما يؤثر من الشعر والنثر، وما يتصل بهما لتفسيرهما والدلالة على مواضع الجمال الفنى فيهما، وكان هذا الذى يتصل بالشعر والنثر، لغة حينا ونحوا حينا، ونسباً وأخباراً حينا ثالثاً، ونقداً فنياً فى بعض الأحيان»[٥٢]. أما الأدب فى أبسط علاقة له بالشعور فهو «النتاج العاطفى الذى يعبر فيه صاحبه بالألفاظ عن شعور عاطفى، وفيه إثارة للقارىء وللسامع، أى ذلك التعبير اللفظى العاطفى المثير».[٥٣] والأدب بصفة عامة شجرة تجمع ألوان الفنون التعبيرية وهو أكثر الفنون انتشاراً وتأثيرا، فالأدب يضم تحت مظلته فنون الشعر والقصة والرواية والمسرحية والمقالة والخاطرة وترجمة الحياة وغيرها، وجميعها تقوم فى الأساس على حفز المشاعر وتحريك القلوب، وتنمية

المدارك. ويمكن تعريف الأدب فى إطار وظيفته الجمالية بأنه الإبداع الفنى لنماذج متنوعة فى مجالى النثر والشعر وهو تجربة القارىء حين يتفاعل مع النص طبقاً لمعانيه الخاصة ومقاصده ودلالاته. «ولكى نحدد الأدب تحديداً مفيداً فمن الضرورى أن نفكر فى وظيفة الكلمات والصور، كيف تؤدى النماذج وتقدم رموز التجربة الجمالية التى يود الأديب التعبير عنها، وبمعنى آخر، كيف تساعد الرموز القارىء على إدراك النماذج والعلاقات والشعور والأحاسيس التى تنتج عن تجربة الفن الداخلية، وهذه التجربة الجمالية يمكن أن تكون خلقاً لتجربة جديدة أو امتداداً لتجربة حاضره أو إعادة تركيب لتجربة ماضية».(٥٤) وعلاوة على الدور المدرك للفن هناك مقاصده التربوية والأخلاقية: «وهناك مغزاه التعليمى.. إنه يؤثر أول ما يؤثر على إحساسنا ويستحوذ على انفعالنا»(٥٥).

فقد كان الأدب – وما يزال – هو الذى يصور حقائق النفس البشرية بأسلوب تعبيرى جميل، فالأدب سجل للأفكار وعرض للمشاعر، وبواسطة الفنون الأدبية يكشف الإنسان عن خلجات النفس الإنسانية بكل آمالها وآلامها. كما تردد مفهوم الأدب بين الأجيال ليعبر كذلك عن الخبرات والمعارف والآداب الحسنة، التى يلقنها الآباء للأبناء ليواجهوا الحياة ويسلكوا فيها سلوكاً محموداً، وهى نظرة أخلاقية تعنى المنفعة والمتعة وتحمل كثيراً من معانى

الحياة التى تنظمها السلوكيات والأخلاق والفن والإبداع جميعا. فالنتاج العقلى المدون فى كتب هو من المعانى الشائعة للأدب فى العصر القديم، أى من زمن الجمع والتدوين (القرون الهجرية الثلاثة الأولى). أما المعنى الخاص للأدب قديماً فيدل على الكلام الجيد الذى يحدث عند تلقيه لذة فنية إلى جانب المعنى الخلقى. وفى ذلك كتبت التصانيف وظهرت التآليف وظهرت التأليف ونظمت الأشعار الدالة حول هذه المفاهيم عن معنى أو معانى الأدب. يقول الشاعر المخضرم سهم بن حنظلة الغنوى:

لا يمنع الناس منى مـا أردت ولا   أعطيهمو ما أرادوا حسن ذا أدبا

أى أنه يهذب النفس بنتاجه ويخاطب بروائعه. والأدب أيضاً «ومعه معظم المعارف الإنسانية الكبرى التى تمس الشعور والوجدان وتتمرد على المادة والتجسيم.. تأبى أن يكون لها تعريف جامع ومانع، وأن الوسيلة إلى معرفتها هى الحس والشعور وليس العقل والمنطق والتقنين».[٥٦] فالأدب – بمفهومة الفنى الحديث والمعاصر – يختلف عن مفاهيم عديدة التصقت به عبر تاريخ الأدب العربى، لغة واصطلاحاً، مثل معانى التأديب، والأدب، والمأدبة، وتهذيب الخصال، واصلاح السلوك واكتساب العادات الحميدة، وهو فى النهاية مجال تعبيرى مكتوب له فنونه النثرية والشعرية.. مجال رحب محبب إلى النفوس، يستأثر بالقلوب ويستهدف تنمية الوعى والشعور

والإحساس، وهو مع ذلك كله علم من العلوم الرئيسية التى لاغنى عنها فى كل أمة فى أعز ماليها: اللغة وآدابها وما يدور حولها من تأصيل وتحديث.

من المعلوم أن الفروق ظاهرة بين لفظة الأدب وتطور معانيها - كما ألمحنا سابقاً - كما أن معنى كلمة الأدب يختلف من فرد إلى آخر اختلافات بعيدة، إذ يختلف الأدب فى مفهومه عند الفرد الواحد تبعاً لاختلاف تطوره الزمنى والعقلى، وكذلك يثار الجدل الفكرى فى كل مجتمع حول الأدب ووظيفته وما ينشأ عن ذلك من توليد لمذاهب أو نظريات أو أنواع أدبية تعبر عن فلسفة الأدب ومفهومه فى فترة ما وفى أدب أو آداب مختلفة، ومن ثم تتطور أو تتغير المذاهب والنظريات حول الأدب ويبقى معنى الأدب فى الوجدان الفردى الجماعى من خلال النتاج الإبداعى المكتوب. وغاية ما يمكن أن نقوله أن الأدب فوق كونه أهم الفنون التعبيرية الجميلة باللغة، هو علم له أصوله وقواعده ومذاهبه وغاياته، فلا يوجد الأدب بدون الاستعمال اللغوى باعتبار اللغة أداة ضرورية لنقل الأفكار والمشاعر، ويتطلب فى الأدب تقعيد هذه الوسيلة الضرورية وتنظيمها وتطويعها خلال بناء المبدع للنص الأدبى، ويحسم المعنى الدلالى لألفاظ اللغة فى النص الأدبى المقاصد التى يثيرها الأدب عند القارئ، فالقارئ يستقبل المفهوم العام للأدب ثمرة (جاهزة) للتمثيل والهضم،

عناصرها اللغة، وقواعدها الإطار الشكلى، والبيان إلى آخر الأطر البلاغية واللسانية والجمالية. ومهما يكن من شيء فإن الأدب كفن إبداعى خلاق ينهض بالأدوار الإيجابية فى المجتمع من خلال التناول الأدبى لمفاهيم الحق والخير والجمال.

وقد أحس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم) بأهمية الأدب وعمق تأثيره فى الحياة والأحياء فأقام للشعر منبراً فى المسجد، كما قال عن شاعره حسان إنه ينطق بروح القدس، كما قال أيضا: (إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً) وفى الحديث النبوى الشريف ما يؤكد الاهتمام بالأدب بعامة والشعر بخاصة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من الشعر لحكمة، فإذا ألبس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه من الشعر. فإنه عربى».[٥٧] ورأى العلامة عبد الرحمن ابن خلدون أن الأدب هو الأخذ من كل علم بطرف بحيث يشمل مفهوم الأدب العلوم الدينية وغير الدينية، فالأدب يجمع عنده:«.. اللغة والنحو والبيان والأدب.. وثمرته الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف».[٥٨] إذن فالغاية من وراء تتبع مفهوم الأدب فى تراثنا العربى وفى بعض معانيه الحاضرة هو التأكيد على وجود علاقة وثيقة بين الأدب والإنسان أينما وجد وحيثما ارتحل. والأدب لازم الإنسان

منذ أدرك وأحسن وأبدع فكانت فنون الأدب متعته الوجدانية وما تزال.. والحضارة الإسلامية توجه الحس البشرى للجمال توجيهات تتضاءل أمامها مقاصد النظريات المتغيرة بزوال أصحابها، لأن شمول النظرة أبرز ما يميز الحضارة الإسلامية، فالفن الصحيح الخالد هو الذى «يهيىء اللقاء الكامل بين الجمال والحق فى هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود»[٥٩].

ومما لاشك فيه أن هذا يدلنا على مدى ارتباط الأدب بالرؤية الحضارية السائدة والمتغيرة في المجتمع، وهو كذلك تصوير كامل للعلاقة الترابطية بين الإنسان والكون، وهو رؤية وجدانية عميقة تتجاوز الواقع الخارجي إلى انعكاسات داخلية تترجمها السلوكيات والقيم والأخلاق والخبرة بمواقف الحياة. والأدب أو الفن برؤيته الشاملة فى توجيه الحس البشرى يطمع إلى «تحويل الواقع الخارجى إلي وجدانية باطنية لكى تتحول تلك الحالة الوجدانية بدورها إلى سلوك خارجي».[٦٠] ومن المعلوم أن السلوكيات ترتبط بمعطيات التنشئة بعامة وأساليب النشأة والتكوين عند الطفل بخاصة، ومن ثم تأثر الأدب الوجدانى بسائر أساليب التنشئة الاجتماعية، إذ يتأثر بالوجود الاجتماعى ويؤثر فيه بدوره. ويعلل الأستاذ أحمد أمين فى كتابه:(ضحى الإسلام) هذه النظرة الشمولية

فى الحضارة الإسلامية لتوجيه الحس البشرى بالتركيز على أصول التنشئة وفى الأخذ بسبابها فيذكر: «.. يقول النبى صلى الله عليه وسلم: (أنا أفصح العرب، بيد أنى من قريش، ونشأت فى بنى سعد بن بكر). كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان فى النطق، وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما فى النفس، فإذا امتازت قريش بالفصاحة، فقد امتازت بنو سعد بسلامة اللغة، فجمع النبى صلى الله عليه وسلم الأمرين».(٦١) ولأهمية الأدب نثره وشعره فى تنشئة أطفال المسلمين غداة الفتح الإسلامى بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكتبه إلى ساكنى الأمصار يقول: «أما بعد.. فعلموا أولادكم السباحة والفروسية وروّوهم ما سار من المثل وما حسن من الشعر..».(٦٢) وكان (المؤدبون) لدى الخلفاء والأمراء من أدباء وعلماء يهذبون أبناء الخلفاء والقادة ويقومون بقدر هام من الأدب الوجداني فكان يشمل تأديبهم بمعناه التهذيبى المثل والحكمة والشعر وأيام العرب وأخبارهم، ويعد هذا الاهتمام المبكر بأدبيات الطفل خطوة في بناء العقل وترقية الوجدان من زمن بعيد. إن اتساع مخيلة الطفل وتنمية معارفه والارتقاء بمداركه بتنمية الحس الجمالى عنده هو جماع ما يستهدفه الأدب من بناء الإنسان من خلال تهيئة الحواس للتذوق والتخيل وبث مثيرات الانفعال الإيجابى بالأدب وبالتالى يتحقق السرور والمتعة والمنفعة. إن أدب

الطفل فى التراث العربى له وجوده ودلالاته، وقد فطن علماء اللغة وآدابها- من المؤدبين - لأهميته، برغم عدم وضوح أدب الطفل كنوع أدبى مستقل له قواعده ومناهجه بين أمهات كتب الأدب والنقد.

ومما لا جدال فيه أن نتاج أدب الأطفال الموروث فى إطار الأدب العام يشكل الإرهاصات الأولى لتتبع نشأة أصوله التراثية وبالتالى إمكانية تأصيل مثل ذلك النوع الأدبى فى الأدب الحديث، وهو فى ضوء ما قدمناه آنفا جنس أدبى مركب يجمع بين العقل والوجدان له جذوره الأدبية المتفرقة في ظل الحضارة الإسلامية، على عكس التصورات السائدة بين بعض كتاب الطفل من تغليبهم للكتابة المعرفية والثقافية والتاريخية على الجوانب الإبداعية، والأخيرة هى فيما نطمح إليه، الهم الأول لأدبيات الطفل. إن أطفالنا بحاجة إلى الأدب كعلم فى مناهجهم، يرقى بوجداناتهم قدر إشباع حاجاتهم التعليمية والصحية والغذائية، فهم صفحاتنا البيضاء التى نستطيع الكتابة فوقها عن وعى ومعرفة وخبرة جمالية، على نحو ما صنع أجدادنا الأوائل مع أطفالهم حتى صاروا من بعد القادة والعلماء والأدباء الذين أضاءوا فى القرن العاشر الميلادى - الرابع الهجرى - ظلامات أوروبا.

إن الطفل أمانة، وله علينا حقوق.. إنه «.. أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل

لكل ما نقش وسائر إلى كل ما يمال إليه..»[٦٣]. وهذا المخلوق البرىء، عجينة طيعة، تنتظر التشكيل السديد رعاية عقلية تسير فى نسق واحد مع الرعاية الوجدانية داخل المدرسة وخارجها، يقول الشاعر العربى القديم فى ذلك:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئا   فمطلبها - كهلا - عليه شديد

وليس من شك فى أن الأدب، وبخاصة الجانب اللغوى منه، والذى ينمو مع الطفل تبعا لتطور مراحل الطفولة المتدرجة يمثل القدرة المكتسبة. واللغة، باعتبارها الوعاء الحضارى للمعاني والقيم والأخلاق، تدخل فى إطار وظيفة الأدب، بل هى إحدى وظائف أدب الطفل.

مفهوم أدب الطفولة :

ثمة مسلمة يطرحها هذا الفصل مع نهايته، مؤداها حتمية التمييز بين النتاج الفكرى (عن) الطفولة والنتاج الأدبى الموجه (لهم). فإذا ما طرحنا مؤقتاً النصوص الأدبية التى كتبت أساساً للطفل، ألفينا أن التصاق سائر النتاج المعرفى (المكتوب للطفولة) من المفاهيم السائدة الخاطئة التى تدرج هذا النتاج تحت مسمى أدب الأطفال، وينبغى تأسيساً على ذلك إعادة النظر فى التمييز بين هذين النتاجين.

وقد كشفت نتائج احدى الدراسات «الببليومترية»[٦٤] - فى السنوات الأخيرة - عن أهمية الحاجة إلى فصل المؤلفات العامة فى

مجال الطفولة عن الأدب الإبداعى الموجه للطفل بغرض بناء جسر جديد يوصل الطريق لخلق أدب الأطفال فى المكتبة العربية..

فأدب الأطفال له آثاره الإيجابية في تكوينهم وبناء شخصياتهم وإعدادهم ليكونوا رواد الحياة، والطفل هو الإنسان فى أدق مراحله وأخطر أطواره، ومن ثم فإن الاهتمام بالجانب الوجدانى من حياة الطفل يتعين ألا يعلوه أى اهتمام آخر. وعلى أية حال فالأدب الإبداعى الموجه للطفل له طبيعته المميزة عن أدب الكبار من حيث التعددية الواضحة لطبيعة هذا اللون من الأدب، فهو بوظائف التربية الوجدانية (الوظيفة الجمالية)، والظيفة الأخلاقية، والنمو اللغوى، والانفعال الإيجابى بالأدب، عن طريق تنمية الحس الجمالى أو التذوق الفنى عند الطفل واكتسابه للقيم والسلوكيات، والمهارات اللغوية والتعبيرية والميل إلى اللغة وآدابها، ومن ثم التعبير السليم عن مطالبه وأفكاره ومشاعره. وقد تزايد فى النصف قرن الأخير النتاج الفكرى المطبوع فى مجال الطفولة، واتسم هذا النتاج المعرفى العام بالغزارة والتنوع[٦٥]. وقد شاع - كما ألمحنا سلفا - بين جمهور المؤدبين والمعلمين والكتاب نوع من التداخل بين الناحيتين: المعرفية العامة وأدبيات الطفولة المتخصصة.

وهذا لا يمنع من الاعتراف بالجهود المتتالية التى بذلها المحدثون من الكتاب والخبراء فى ميدان إنتاج الكتابة المعرفية لمراحل الطفولة،

تأليفاً واقتباساً وترجمة وتعريبا، فالمكتبة العربية بعامة، وفي مصر بخاصة، تضم قائمة ضخمة من المؤلفات الموجهة للطفل فضلا عن الكتابة عنه، كما أنجزت عشرات[٦٦] الاطروحات العلمية بالكليات الجامعية حول الطفولة في جوانبها المختلفة ونستطيع بشيء من الرصد الببليوجرافي الوقوف على تضاؤل الاهتمام بأدب الطفل، فلم يحظ أدب الأطفال باهتمام يذكر من البحوث الاكاديمية الأدبية (بكليات الآداب) غير أنه من الواجب الإشارة إلى الدور الذى قامت به جامعة حلوان باقتراب بعض البحوث المقدمة إلى أقسامها التربوية والفنية من الجانب الأدبي والفنى عند الطفل، وقد توفرت البحوث العلمية في معظمها حول الجوانب التربوية والرياضية والصحية والنفسية بنصيب وافر من الدرس الجامعى مع إهمال من جانب الباحثين يعدل الاهمال المثير للدهشة من المبدعين الكبار لعدم غزوهم قلب الطفل وحفز عالمه الوجداني.

وقد يدور هذا التساؤل: لم التخصص فى أدب الطفل؟.. وللإجابة على هذا التساؤل نستقرىء الأصول التراثية والتغيرات الحضارية المعاصرة، فالحقيقة التى لا جدال عليها أن التراث العربى حمل إلينا عبر تاريخه الأدبى الطويل.. الأصالة، والتطور فى (الأنواع) الأدبية: النثر وأبوابه، والشعر وفنونه، وفى «الغايات» الأدبية، والتى اصطلح على تسميتها من بعد بالوظيفة فى الأدب والفن[٦٧]، وفى ضوء ذلك يتسم الأدب بإمكانية التغير والتجدد فى إطار المتغيرات الحضارية ثمرة لاهتمام العلوم المعاصرة بالإنسان.

يقول فى ذلك الشأن ابن قتيبة: «ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولاخص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا فى عصره، وكل شريف (خارجى) فى أوله»(٦٨) ولا يعنى أن التجديد فى الأغراض الأدبية أو استحداث جنس أدبى ما، الانفلات كلية عن الأصول التراثية، وإنما تجيء هذه الأغراض أو تلك الأنواع مواكبة للتغير الحضارى الإيجابى الذى يستلهمه شعورنا الجمعى ولذوق العصر الذى نعيشه، لأن هذا كله رهين بالمحافظة على الجذور التراثية الأصيلة فى أدبنا.

ومما لاشك فيه أن الشعر العربى أغراض منها القديم الأصيل ومنها الحديث المتجدد، ومن نافلة القول سرد الأغراض القديمة فى الشعر من مثل: الحكمة، المديح، الفخر، الرثاء، العتاب، الهجاء وغيرها. وبعد اتساع رقعة الحضارة الاسلامية والاحتكاك بالثقافات الأجنبية ظهرت مقاصد جديدة وأغراض متجددة كوصف المخترعات وظواهر الطبيعة مع الأحياء إلى آخر الأغراض الشعرية والأنواع الأدبية الجديدة في اطار التغير الحضارى. على سبيل المثال لم يعرف أدبنا العربى إلى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى - اشكالاً متجددة، وفى إطار تجديد النثر والشعر بدأت تخبو عدة أنواع أدبية مثل المقامات، الأندلسى فن الموشحات الذى ازدهر فى والرسائل الديوانية، كما خفتت أضواء وفنون «القوما» و«الكان كان» و«الدوبيت»، وفى المقابل استحدثت عدة فنون فى البيئة العربية،

فظهرت الأنواع النثرية والشعرية، مثل الرواية بمعناها الفنى الحديث وفن القصة القصيرة فى النثر، وفى الشعر ألفينا المسرحية الشعرية تفتح بابا جديدا فى الأدب العربى بعامة، وفى المسرح الشعرى بخاصة، كما فطن الذوق العربى إلى أهمية التجديد فى الأجناس الأدبية وهو فى لحظات التجديد الحضارية - كان يصدر - عن جذور تراثية تستلهم الشكل المعمارى الموروث مع تطويع الأنواع المتجددة لمعطيات الحضارة المعاصرة فى الشكل والمضمون. لاجرم إذن - إن قلنا - إن الأدب الأطفال كجنس أدبى مستحدث نشأ ليخاطب «عقلية» و«إدراك» شريحة عمرية لها حجمها العددى الهائل فى صفوف أى مجتمع، فهو أدب مرحلة من حياة الكائن البشرى لها خصوصيتها وعقليتها وإدراكها وأساليب تثقيفها فى ضوء مفهوم التربية الوجدانية التى تستعين بمجالى الشعر والنثر.

غير أن الشىء المهم فيما يتصل بهذا النوع الأدبى أنه ينشأ كما سبق وأن المحنا، فى اطار تغير حضارى من ناحية واهتمام العلم بكل ما يتعلق بالإنسان(٦٩) من ناحية أخرى. وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن أى نوع أدبى يظهر زمن الحروب يسمى «أدب الجهاد» أو «أدب المقاومة» فالأعمال الأدبية أو الفنية التى تتجاوز فى أغراضها وتوجهاتها «الغرض التقليدى» كالرثاء أو التشبيب فى الشعر إلى آفاق إنسانية محورها الإنسان - أو الأبعاد الإنسانية - هى أعمال تقترن بالوظيفة الجمالية أو الأخلاقية، فأدب الرحلات أو أدب الخيال العلمى أو أدب الأطفال تنزع بدورها للتعبير عن الإنسان وإشباع

حاجاته فى إطار عمره.

ودفعا لتهمة الإقلال من شأن أدب الأطفال باعتباره نظما شعريا أو نثراً خيالياً، فيمكننا القول بأن «المتعة» و«الفائدة» من الطبيعة التعددية لهذا اللون الأدبى كفيلة لدفع التهمة وردها إلى أصحابها، فأدب الطفل هو أدب المستقبل لأنه أدب مرحلة طويلة من عمر الإنسان. وعلى أية حال، فإن الإبداع المؤسس على خلق فنى، والذى يعتمد بنيانه اللغوى على الفاظ سهلة، ميسرة، فصيحة غير حوشية تتفق والقاموس اللغوى للطفل[٧٠] بالإضافة إلى خيال شفاف، ومضمون متنوع، مع القصر المقصود للنص الأدبى الموجه للطفل - كل هذه وتلك عناصر دالة على اقترابنا من تحديد مفهوم أدب الطفل.

وتبقى مسلمة أساسية مؤادها توظيف العناصر السابقة بحيث تقف أساليب مخاطبتها وتوجهاتها «لعقلية الطفل» و«إدراكه» كى يفهم الطفل النص ويحسه ويتذوقه، ومن ثم يكشف بمخيلته غايته أو وظيفته. ويزعم بعد ذلك كله أن أدب الطفل لا يختلف عن أدب الكبار إلا فى المستوى اللغوى للنص على عكس ما يتضمنه عند الكبار من خيال تركيبى معقد أو الفاظ جزلة أو معان تستغلق على عقلية الطفل وإدراكه. ومن الخطأ البين القول بأن مضامين أدب الأطفال «منفصلة عن أدب الكبار، أو أنها نشأت منعزلة عن التيار الأدبى العام، أو يظن أنها تقوم بمقاييس تختلف عن أدب الكبار... فقد يختلف أدب

الصغار عن أدب الكبار فى تلك الأمور التى لا مفر منها من أن تختلف فيها «العقليتان» و«الإدراكان» ومن ثم فنتاج الذهن من أدب الأطفال يستحق أن يواجه نفس المستويات من النقد»[٧١].

وفى التراث الشعرى نجد «.. فيضا من المقاطع التى كانت تغنى للأطفال عند تعليمهم أو تنويمهم، ومن بين هذا التراث ما هو أغانى مهد ترنمها الأمهات لأطفالهن عند تنويمهم، وأغانى ملاعبة يؤلفها الكبار للأطفال أثناء اللعب. وقد أطلق مصطلح ترقيص الأطفال على هذا الموروث الشعرى، ويمكن العثور بين ثنايا الأدب العربى القديم على بعض الأعمال الأدبية التى يمكن أن تتوافق مع قدرات الأطفال رغم أنها فى الأساس غير موجهة إليهم..»[٧٢] وفى خاتمة هذا الفصل نستطيع مما تقدم أن نصل إلى مفهوم لأدب الطفل تمييزا لهذا النوع الأدبى عن النتاج الفكرى الذى يكتب حول الطفولة. إن الابداع الأدبى الموجه (للطفولة بمراحلها) خاصة من سن المدرسة إلى نهاية الطفولة المتأخرة، هو المنظوم والمنثور من فن الأدب ويجب ألا يسبح خارج حدود دائرة الأدب إلى النتاج المعرفى العام.

ويمكننا تعريف أشكال أدب الطفولة فى ضوء ما قدمناه – آنفا – بأنه يقع فى دائرتين:

أولاهما : دائرة الشعر وتضم :

الأمهودات والأغانى الموزونة (أغانى الترقيص)، وأغانى اللعب

والمناسبات والأناشيد والأراجيز الشعرية، والمنظومات الشعرية القصيرة والمحفوظات التعليمية والدراما المبسطة (المسرح الشعرى للطفل)، والقصة الشعرية على لسان الحيوان.

وثانيتهما: دائرة النثر وتضم:

الحكايات القصصية، والأساطير (المعالجة)، الحكاية على ألسنة الحيوان والطير، (الأدب الحكيم) الأمثال والوصايا والألغاز الأدبية والأحاجى اللغوية. أما إقحام الكتاب للنتاج المعرفى (تاريخى أو ثقافى أو علمى) فى أدبيات الطفل فيعد هدما للمفهوم اللغوى والاصطلاحى لأدب الطفل، وأولى بأصحاب هذا النتاج الفكرى - وهو غزير متنوع - أن يدرجوه تحت مظلة تخصصات العلوم وهى جد كثيرة ومتنوعة أيضا.

* * *

هوامش الفصل الثانى

(١) رواه الحكيم الترمذى، وتشير كتب السيرة والأخبار واللغة والأدب فى أكثر من موضع منها إلى أى مدى بلغت عناية الاوائل بالطفل، وتزايد هذا الاهتمام بظهور الاسلام فقد لقى الطفل فى ظل الحضارة الاسلامية أوجه العناية المتكاملة وأبرزها تغيير النظرة الجاهلية للطفل الأنثى وتحقيق الرعاية المتساوية بين الذكر والأنثى من ولادتهما حتى يشبا.

(٢) حطان بن المعلى المخزومى القرشى«، شاعر اسلامى، انظر: شرح ديوان الحماسة. محاضرة الأخيار ومسايرة الأبرار: ص ٣٢، ص ٣٠٨.

(٣) الشوقيات. جـ٣، قصيدة البنون والحياة الدنيا، ص٥٩، ط القاهرة ١٩٤٧م.

(٤) أيها الولد المحب للإمام الغزالى، تحقيق عبد الله ابو زينه، ص ٣٢ - ٨٦، ط دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣م.

(٥) آثار ابن المقفع، ابن المقفع، ص ٣١٨ - ٣٣٠ نشر دار مكتبة الحياة بيروت د. ت.

(٦) أبرزها انشاء المركز القومى لثقافة الطفل (١٩٨٠) وانشاء شعبة ثقافة الطفل بالمجلس الأعلى للثقافة، انشاء جائزة الدولة لأدب الطفل، انشاء المعهد العالى لدراسات الطفولة بجامعة عين شمس، وتدريس مواد أدب الأطفال وكتبهم ببعض كليات التربية والآداب، انشاء المجلس القومى للأمومة والطفولة، انشاء المجلس العربى للطفولة والتنمية، التوسع فى المكتبات والمعارض والمؤتمرات البحثية حول الطفولة والرعاية المتكاملة التى بدأت آثارها الإيجابية تشكل شخصية الطفل.

(٧) الاعلان العالمي لحقوق الطفل، الأمم المتحدة، نيويورك، ٢٠ نوفمبر ١٩٥٩م.

(٨) المرجع السابق.

(٩) تنمية الابداع، د. زين العابدين درويش، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

(١٠) مجلة المنهل. ملف العام الدولي للطفل، ع ٤٣٤، ص١٩٩، السعودية. ١٤٠٥ هـ.

(١١) ثقافة الطفل العربي، جمال أبو رية، ص ٤٠، دار المعارف، ١٩٧٨.

(١٢) الأدب والطفل، محاضرة القيت بالموسم الثقافي لكلية البنات بجدة. د. محمد أحمد حمدون، الثلاثاء، ٢٩ من صفر ١٤٠٦هـ.

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) متفق عليه.

(١٥) مجلة المنهل، ملف العام الدولي للطفل، ع ٤٣٤، السعودية ١٤٠٥ هـ.

(١٦) لسان العرب، ابن منظور، جـ٢، ص٣٨٤، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة. د.ت.

(١٧) المرجع السابق ص ٣٨٦.

(١٨)(١٩) كشف اصطلاحات الفنون، التهانوى، جـ٤ ص٤ ط الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢

(٢٠) أصول التربية الاسلامية، عبد الرحمن النحلاوى، ص ١٣، دار الفكر دمشق، ١٩٧٩م.

(٢١) كتاب الزينة، أبو حاتم الرازى، جـ٢، ص ٢٩، ط القاهرة ١٩٥٨م.

(٢٢) كتاب السياسة، عنى بنشره وتعليق حواشيه الأب يونس معروف اليسوعى

فى كتاب مقالات فلسفية، ص٤،ط دار العرب البستانى بيروت ١٩٨٥.

(٢٣)(٢٤) أصول التربية، د. ابراهيم مطاوع ص٥١ ط دار المعارف ١٩٨٣م.

(٢٥) التربية والتعليم فى مصر القديمة، د. عبد العزيز صالح،ص. ٥، ط الدار القومية للطبع والنشر ١٩٦٦.

(٢٦) تأديب الناشئين لابن عبد ربه الأندلسى، تحقيق وتعليق، محمد ابراهيم سليم، ص١٢١ - ١٢٢ط مكتبة القرآن القاهرة د.ت.

(٢٧) أصول التربية الاسلامية، عبد الرحمن النحلاوى، ص١٤ ط دار الفكر دمشق ١٩٧٩م.

(٢٨) التربية والتعليم فى مصر القديمة، د. عبد العزيز صالح، ص٢٣٣، الدار المصرية للتأليف والنشر١٩٦٦.

(٢٩) المرجع السابق ٣٦٩.

(٣٠) أكبر شريحة بشرية فى أى مجتمع إنسانى هى الشريحة الاجتماعية التى تضمها مرحلة الطفولة ويمثل حجم الطفولة العربية نحو أربعين فى المائة من إجمالى السكان، وتزيد هذه النسبة قليلا فى مصر لارتفاع معدلات النمو. أنظر: تعداد السكان لعام ١٩٨٦ الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء.

(٣١) قاموس علم الاجتماع، إشراف ومراجعة د. عاطف غيث، ص٥. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨، ويعرف المعجم الوجيز، الطفل المولود حتى البلوغ، والطفولة المرحلة من الميلاد إلى البلوغ، مجمع اللغة العربية.

(٣٢) لسان العرب لابن منظور ص ٢٦٨١ - ٢٦٨٢، ط دار المعارف. د.ت.

(٣٣) المصدر السابق، ص ٢٦٨٢.

(٣٤) مختار الصحاح ص٤٠٥.

(٣٥) اللسان، مادة ولد، ص ٢٦٨١.

(٣٦) اللسان، نفسه

(٣٧) المصباح المنير، ص ٥٧١.

(٣٨) اللسان، لابن منظور، مادة بنى، ص٣٦٢ - ٣٦٤.

(٣٩) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ص ٥٤ - ط القاهرة د.ت.

(٤٠) ثقافة الأطفال، د. هادى نعمان الهيتى، ص ١٥ عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٨م.

(٤١) الكشاف للزمخشرى، جـ١ - ٥٦، دار الفكر بيروت. د.ت.

(٤٢) الإنسان وعلم النفس، د. عبد القادر سليم، ص ١٢٣ - ١٢٤ عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٧.

(٤٣) طرق تعلم الفنون، د. محمود بسيونى، ص٣١ - ٣٢، ط١ دار المعارف ١٩٦٣.

(٤٤) فى أدب الأطفال، د. على الحديدى، ص ٦٣، ط٢ الأنجلو المصرية.

(٤٥) انظر: كامل كيلانى فى مرآة التاريخ، أحمد زكى أبو شادى، ص ٦٨٣ القاهرة. د.ت.

(٤٦) فى أدب الأطفال، د. على الحديدى، ص٦٢.

(٤٧) التربية فى المانيا الغربيةتأليف هانزج لينجز وآخرين، ترجمة د. محمد عبد العليم موسى، ص. ٦٨، ط مكتب التربية العربى لدول الخليج. د.ت.

(٤٨) آثار ابن المقفع، لعبد الله بن المقفع ص ٣١٨ - ٣٢٠ ط بيروت د.ت.

(٤٩) طرق تعليم الفنون، د. محمود بسيونى، ص ٢٥ - ٥٩.

Weisberg & Springer, K.J. Environmental Factors in(٥٠) Creative Function Archives of General Psychiatry, 1961, p,564.

(٥١) معجم مصطلحات الأدب، د. مجدى وهبة، ص ٥ –٦، بيروت ١٩٧٤م.

(٥٢) فى الأدب الجاهلى، د. طه حسين، ص ٢٣ – ٢٧، ط دار المعارف،د.ت.

(٥٣)فى تاريخ الأدب الجاهلى، .على الجندى، ص ٩٧ ط دار المعارف،د.ت.

(٥٤) فى أدب الأطفال، د. على الحديدى، ص ٦٧.

(٥٥) مدخل إلى الأدب الاسلامى، د. نجيب الكيلانى، المقدمة ، قطر١٩٨٧.

(٥٦) تذوق الأدب – طرقه ووسائله، د. محمود ذهنى، ص١٦ – ٢٢ ط الانجلو المصرية.

(٥٧) مدخل إلى الأدب الاسلامى، د. نجيب الكيلانى، ص٤١ ط قطر ١٩٨٧م.

(٥٨) مقدمة ابن خلدون، القاهرة، دار الشعب، ص٥١٤ – ٥٢٢.

(٥٩) منهج الفن الاسلامى، محمد قطب، ص٦، دار الشروق.

(٦٠) الرؤية الواحدة، مقالة للدكتور زكى نجيب محمود. جريدة الأهرام القاهرة، عدد ١٩٨١/٢/١.

(٦١) ضحى الاسلام، أحمد أمين، جـ٢، ص٢٤٤.

(٦٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ص ٩٢.

(٦٣) تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين، لابن عبد ربه الأندلسى، تحقيق وتعليق محمد ابراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة،د.ت.

(٦٤) أدب الأطفال، دراسة ببليومترية، حامد الشافعى دياب، ص١٥، كلية

الآداب جامعة القاهرة.

(٦٥) أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب مؤخرا قائمة ببليوجرافية لكتب الأطفال فى مصر عام (١٩٨٨)، مزودة بالقوائم الببليوجرافية التى صدرت فى هذا المجال عن دور النشر الكبرى بمصر: انظر أيضا: دراسة استطلاعية لكتب الأطفال فى مصر(٢٨- ١٩٧٨) أعدها لمنظمة اليونسيف د. محمود الشنيطى، د. رشدى طعيمة، زينب الفوانيسى وآخرون، مخطوطة بالآلة الراقمة، ١٩٧٩م.

(٦٦) أنظر دراسات الطفولة فى ربع قرن (جزءان) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، بالتعاون مع مركز دراسات الطفولة بجامعة عين شمس بإشراف د. كاميليا عبد الفتاح (أبحاث صحية ونفسية وتربوية) ولم يحظ الأدب الأكاديمى بنصيب يذكر فى هذا الجهد التوثيقى الجاد.

(٧٧) الوظيفة Function اتجاه للربط بين بنية الأثر الفنى ووظيفته جمالية كانت أم أخلاقية، ونتيجة هذا الاتجاه أن أية صيغة أو محسنات لفظية لا تخدم وظيفة الأثر الفنى خدمة مباشرة، تعتبر زائدة على الحاجة بل طفيلية: معجم مصطلحات الأدب، د. مجدى وهبة، ص. ١٨٤، ط بيروت ١٩٧٤م.

(٦٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، جـ١ ص٦٣، ط دار المعارف ١٩٨٢. (والخارجي: الذى يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم المحقق - المرجع السابق).

(٦٩) تهتم الانثروبولوجيا بدراسة الطبيعة الإنسانية، فتعكس قيم الإنسان وتخدم مصالحه وتفسر مظاهرالحياة من حول الإنسان، وتبحث ادراكاته وابتكاراته ومواهبه ومعتقداته جميعاً.

(٧٠) للطفل قاموسه اللغوى الخاص به، ويزداد حجم الألفاظ اللغوية بانتقاله من

مرحلة تلو مرحلة داخل مرحلة الطفولة بتأثير البيئة المحيطة واستعداد الطفل ذاته للنطق. أما فهم الطفل للألفاظ المقروءة والمسموعة فيقتضى معرفة ذلك نمو وتطور اللغة عند الطفل. أنظر: نشأة اللغة عن الإنسان والطفل، د. على عبد الواحد وافي – فى فلسفة اللغة، د. محمود فهمي زيدان – ثلاث نظريات فى نمو الطفل، د. هدى قناوى – قائمة الكلمات الشائعة فى كتب الأطفال، د. السيد العزازى ود. هدى براده. وقد تتبعت هذه المؤلفات اللغة نشأتها وتطورها. وفى الآداب الأجنبية دارت أبحاث تشومسكى وجان بياجيه وغيرهما فى جوانب منها المجال اللغة واللعب والتمثيل والحركة عند الطفل.

(٧١) فى أدب الأطفال. د. على الحديدى، ص٦٩ الانجلو المصرية.

(٧٢) انظر بحث د. عبد العزيز المقالح لمؤتمر الأدباء العرب طبع وزارة الاعلام بالجزائر ١٩٧٥.. أعلنت الجمعية الطبية الملكية بانجلترا أن العلماء توصلوا إلى نتائج هامة تتعلق باستجابة الجنين للنداء الصوتى المنبعث من أم الجنين عبر أجهزة توصيل ورصد ذات تقنية عالية الحساسية، والمثير للدهشة هو التوصل لرصد استجابة الجنين للنداءات الموقعة، المنغمة، المبهجة – الهيرالدتريبيون عدد ١٩٨٨/٣/٣٠م.

الفصل الثالث

أدب الطفل العربى

رؤية تاريخية وفنية

بدأ الأهتمام بأدب الطفولة فى العالم العربى فى أوائل عام ١٨٧٥م، حيث كانت أدبيات الطفل - يومئذ - ما تزال مقرونة بالتربية فى إطارها التعليمى، فقد قام رفاعة الطهطاوى بغرس البذور الأولى فى تربة أدب الطفل العربى الحديث، عندما أصدر كتابه[١]: المرشد الأمين للبنات والبنين» ويدلنا عنوانه بداية على التوجه التربوى المباشر من ناحية، وعلى غاياته الوعظية من نصح وإرشاد من ناحية أخرى، وهو فى ضوء ذلك قد آمن باحتياجات الطفولة العاطفية والخيالية والترويحية، فأدخل قراءة القصص والحكايات فى منهج الدراسة الابتدائية لتلاميذ مدارس المبتديان فى عهد محمد على بمصر، وقد اعتمد الطهطاوى على الترجمة فيما قدم[٢].

وفى الواقع أن الطهطاوى عقد مزاوجة بين الأدب والتربية فى هذا الكتاب، لذلك لا يعد كتابه من كتب التربية فحسب وإنما حمل إرهاصات أدب الطفل بين مضامينه، فهو إذن لا يندرج تحت مفهوم أدب الطفل بمعناه الفنى الحديث، يقول رفاعة فى خطبة كتاب المرشد الأمين:« ..صدر لى الأمر الشفاهى من ديوان المدارس.. بعمل كتاب فى الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية..»[٣].

وأعقب محاولة الطهطاوى التى أشرنا إليه آنفا، الأديب المصرى محمد عثمان يوسف جلال (-١٨٩٨م) حيث توفر على ترجمة زهاء مائتى حكاية شعرية من حكايات: لافونتين، ولأن محمد عثمان جلال

من المجيدين للفرنسية، فقد تأثر فى نظم كتابه «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ» بلافونتين فيذكر: «أخذت أترجم فى الأوقات الخالية كتاب العلامة الفرنسى الكبير لافونتين – وهو من أعظم كتب الآداب الفرنسية المنظومة على لسان الحيوان على نسق: الصادح والباغم – فاكهة الخلفاء.. وسميتها العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ»(٤).

وقد قررته نظارة المعارف العمومية بمدارسها الابتدائية عام ١٨٩٤ فى طبعته الأولى (٥) ثم أعيد طبعه عام ١٩٠٨ فى طبعته الثانية أى بعد وفاته بعشر سنين، فديوان محمد عثمان جلال «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ» أول محاولة عربية تقوم على الترجمة ومحاكاة أدب الغرب فى نظم أدبيات الأطفال، فهو رائد مرحلة الترجمة فى مجال أدب الطفل، ونظمه فى شعر مزدوج القافية ولم تتقيد ترجمته بالأصل بل عدل فيه، وغير وفق ما رآه مناسبا(٦)، وقد نجح محمد عثمان جلال إلى حد كبير فى أن ينقل حكايات الحيوان الخرافية عن لافونتين، وفى قدرته الفنية فى المحاكاة والتعريب إلى اللغة العربية إذ «ألبسها ثوب الروح المصرية واللغة العربية القريبة من الاستعمال اليومى – وهذه قدرة لا تتوفر للكثيرين – وقد أجمع النقاد – ومنهم العقاد وغنيمى وهلال – أن ترجمة الكتاب كانت حرة بحيث اختفت فيها معالم الروح الفرنسية، وظهرت فيها الروح المصرية بوضوح شديد».(٧) وعندما أصدر أحمد شوقى ديوان

«الشـوقـيـات» فـى طبـعـتـه الأولى عـام ١٨٩٨م. ألفـينا بين دفـتى «الشوقيات» وجود باب للحكايات والقصص الشعرية للأطفال فكان ذلك بمثابة بداية حركةالتأليف الأدبى للأطفال، وقد أثبت أحمد شوقى فى مقدمة ديوانه أنـه تأثر بأسلوب نظم لافونتين لحكاياته دون إشارة منه لمحاولة محـمد عثمـان جلال الرائدة فى «العيون اليواقظ» يقول أحمد شوقى فى مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات:

«.. وجـربت خـاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب (لافـونتين) الشـهـير.. وأنا استبشـر لذلك وأتمنى لو وفـقنى الله لأجعل للأطفال المصريين، مثلما جعل الشعراء للأطفال فى البلاد المتمدنة، منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم»(٨).

ويحث صـديقـه الشـاعـر خليل مـطران للتـعـاون فى إرسـاء قـواعـد جديدة لأدب الطفل فـيذكـر «.. ولا يسعنى إلا الثناء على صـديقى - خليل مطران - صـاحب المنن على الأدب والمؤلف بين أسلوب الأفرنج فى نظم الشـعـر وبين نهج العرب.. والمأمول أننا نتعـاون على إيجـاد شـعـر للأطفـال والنسـاء وأن يسـاعـدنا سـائر الأدباء والشـعـراء على إدراك هذه الأمنيـة»(٩). ولم تحظ دعـوة أحـمـد شـوقى بتـأييـد من الشـعـراء - آنذاك - بمن فـيهـم خليل مطران نفسـه. والاسـتـقـراء التاريخى فى ضـوء ما عرضنا يعطينا حقيقة هامة وهى ريادة محمد عثمان جلال لهذا اللون الأدبى، أما أحمد شوقى فقد اقتفى أثره، أما

عن القيمة الفنية لنتاج الشاعرين فلسنا بصدده الآن، وربما يكفينا الإشارة إلى تأثرهما معاً بلافونتين، ومع سهولة منظومات محمد عثمان جلال، وميل شوقى الواضح لتطبيق مفهوم الأدب الرمزى فى نظم حكايات الأطفال الشعرية. فقبل أن تطبع الشوقيات طبعتها الثانية كتب أحمد شوقى قصيدة عنوانها «دولة السوء» نشرتها عام ١٩٠٠م المجلة المصرية. يقول د. غنيمى هلال: «.. وبدا لشوقى أن الشعر الغنائى لا يكفى لبث آرائه، فلجأ إلى القالب الموضوعى، قالب القصة على لسان الحيوان، نشرها عام ١٩٠٠ فى(المجلة المصرية) وحرص بعد ذلك على ألا ينشرها فى دواوينه، خوفا على نفسه، وعنوانها (دولة السوء) وهى ذات مغزى اجتماعى هجائى».(١٠) وإذا كانت الشوقيات فى طبعتها الأولى قد تضمنت عددا من الحكايات الشعرية على ألسنة الحيوان، فإنها استبعدت من الطبعات اللاحقة، ولكن الجزء الرابع من الشوقيات المطبوع عام ١٩٤٣ ضم خمسا وخمسين منظومة، بينما ضم الجزء نفسه المطبوع عام١٩٥١ ستا وخمسين.. وقد جمعت هذه المنظومات فى كراس بعنوان «منتخبات من شعر شوقى فى الحيوان»(١١).

وقبل أن تصدر الطبعة الأولى من «الشوقيات» بخمس سنين أصدر الشاعر عبد الله فريج كتابة الموسم «نظم الجمان فى أمثال لقمان» فى عام ١٨٩٣، وهذا الكتاب يفتقد إلى روح الشعر

فمنظومات الكتاب تقوم على محاكاة أمثال لقمان الحكيم المألوفة فى نظم شعرى، ولكنه نظم يقترب من النثرية أو التقريرية، برغم أن مؤلفه كتب كلمة أدبية ضافية فى مقدمته، أما محتوى الكتاب فيتضمن خمسين مثلا صبها المؤلف صبا فى قالب الرجز فى موضوعات شتى(١٢) حول الحيوانات والطيور والحشرات والإنسان، وكان ينهى كل أرجوزة بإيراد مثل مأثور من أمثال لقمان الحكيم، يقول عبد الله فرج فى مقدمة «نظم الجمان فى أمثال لقمان»: عمدت إلى أمثال سيدنا لقمان الذى شهد له تعالى بالحكمة فى منزل القرآن وإلى ما جرى ذلك من الأمثال الرائعة ذات الأبيات راسخة القافية.. ثم جعلتها خدمة أدبية لتلاميذ المدارس الابتدائية.

ثم قام على فكرى (١٨٧٩ - ١٩٥٣) فى عام ١٩٠٣ بإصدار «مسامرات البنات»(١٣) وهو عبارة عن أشتات مجتمعات فى أدب التسلية، وعظات دينية وأخلاقية وذكر خصال النساء، ولا نعده من كتب أدب الأطفال لتنوع مادته الدينية والتاريخية مع نتف أدبية، ولكن كتابه «النصح المبين فى محفوظات البنين»(١٤) ورصيفه فى «تربية البنين» ونظيره «فى تربية البنات» والتى أصدرها عام ١٩١٦ من الكتب الأولى التى ساهمت فى ميدان أدب الطفل الحديث، فتوفر على المنظومات والأناشيد الشعرية فى إطارها التعليمى والأخلاقى.

وفى عام ١٩١١م ظهر كتاب «آداب العرب» وهو منظومات عربية

متنوعة للأطفال سار فيها مؤلفها إبراهيم العرب(-١٩٢٧) على طريقة «لافونتين» وقد قررته نظارة المعارف بمصر - آنذاك - على تلاميذ المدارس الأولية[١٥] وتضمن كتاب آداب العرب بمنظومة الختام[١٦] (مائة) منظومة شعرية دارت جميعها على ألسنة الحيوان والطير، غايتها إيراد العظة فى أسلوب شعرى قصصى، يقول ابراهيم العرب فى منظومة ختام الكتاب حول حكاياته:

أمثال صدق تجلت لا مثيل لها   معنى صحيح ولفظ فيه تجويد
ضمنتها النصح والأغراض شاهدة   وفى لسان الفتى للحق تأييد
وهذه جمل مملوءة حكما   من دون نشر شذاها الند والعود

والملاحظ أن شاعرية إبراهيم العرب تتجاوز سلبيات منظومات «نظم الجمان» لعبد الله فريج لاقترابها من روح الشعر وغاية الأدب التعليمى.

وفى عام ١٩١١ أعاد أحمد شوقى نشر حكايات الأطفال فى الطبعة الثانية من الشوقيات، وإلى تلك الفترة الزمنية نستطيع أن نصف البدايات الأولى لنشأة أدب الأطفال فى الأدب العربى الحديث بأنها نشأة اعتمدت فى أساسها الفنى على الترجمة والاقتباس والتأثر بالأدب الغربى الحديث بعامة وحكايات لافونتين الخرافية بخاصة، وفى الواقع أن مصطلحية: أدب الطفل الذى دعا إليها أحمد شوقى فى صدد حديثه عن التعاون بين معشر الأدباء لقيام جنس

أدبى للطفل، ظلت إلى منتصف العقد الثالث من القرن العشرين تقريبا، تدور فى فلك الاتجاه التعليمى: تلقين القيم والمعارف والآداب الحميدة والعظات المباشرة إذا استثنينا حكايات شوقى للأطفال المحملة بالأدب الرمزى فى اطاره الحكيم، وفى عام ١٩٢٢ أوقد الشاعر محمد الهراوى أول شمعة عربية فى ميدان أدب الأطفال ليعبد الطريق للمبدعين للتوفر على التأليف للطفل، حيث أصدر ديوانه الأول «سمير الأطفال»(١٧) فى طبعته الأولى وفى العام التالى أصدر الطبعة الثانية منه، وتوالى إنتاج هذا الشاعر الرائد فى مجال التأليف الشعرى المتنوع للطفل. إن القراءة المتأنية لنتاج الشاعر محمد الهراوى تؤكد المعنى الفنى لأدبيات الطفل، والمؤرخ المنصف سيجد أمامه ريادة الشاعر وفضله فى بدء تأليف حركة أدبية جادة خاصة بالطفل(١٨). والهراوى فى ضوء ذلك نقل أدب الطفل العربى إلى مرحلة التأليف الأدبى الخاص للأطفال على اختلاف أعمارهم، ويلاحظ كذلك البدايات الأولى، لأدب الطفل فى فنون النثر الحديثة، ففى ١٩٢٩، يصدر حامد القصبى: «التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل» ويبدو من عنوان المؤلف أنه قد آمن بدور القصة كنوع أدبى من ناحية وكوسيط تربوى فى القراءة والتعليم من ناحية ثانية، فالمطالعة لم تعد فى قاعات الدرس فحسب بل متعة ومنفعة خارج المنهج المدرسى، ولا يعيب محاولة حامد القصبى سوى

اعتمادها على الاقتباس من بعض القصص الإنجليزية الملائمة للطفل في حين توجد أفكارها ومضامينها على نحو أدق وأشمل في الأدب العربي. وأمام هذا التطور في الأدب التعليمي كان رائد المؤلفين في أدب الأطفال العربي - كان قد كتب عام ١٩٢٧ أول قصة أدبية للأطفال أسماها «السندباد البحري»، ونعني برائد المؤلفين كامل الكيلاني (١٨٩٧ - ١٩٥٩م) الذي أصدر مكتبة كاملة للطفل، واتسم نتاجه بالغزارة والتنوع والقيمة الفنية العالية

وفي عام ١٩٣٠ ظهر مصطلح أدبيات الطفل في الدوريات العربية، ففي عناوين المقالات وفي ثنايها ظهرت إلى الوجود ملامح تأصيل وجود جنس أدبي للطفل، قبل هذا التاريخ كانت كتب الأطفال تقتصر اقتصارا يكاد يكون تاما على الأغراض التعليمية مادة للقراءة المدرسية تهتم بالمحصول اللغوي وتعدو إلى القيم والآداب الحميدة.

ومن أشهر ما كتبه حول نهضه التأليف للأطفال د. زكي مبارك: «.. أشهر المؤلفين في هذا الباب رجلان: محمد الهراوي، كامل كيلاني وهما بعيدان عن التدريس»(١٩) مشيرا في مقالته إلى رائدين في أدب الطفل، حيث «بدأ الاهتمام بالتأليف للأطفال يبرز في نواح بعيدة عن بيئة التدريس، وبدأ إن حيث الشكل أم من حيث المضمون، محاولة منهم في أن يدفعوا كتاب الطفل إلى تقديم الأفضل» (٢٠).

وفى العراق قامت نهضة أدبية للطفل فى أواخر ثلاثينيات القرن الحالى عندما نظم الشاعر معروف الرصافى منظومات شعرية[٢١] خفيفة فى المجلات المدرسية، ونشرت مجلة الفتوة البغدادية قصيدة الشمس عام (١٩٢٩) وقصيدة الوطن، وقصيدة «الرفق بالحيوان» فى عام ١٩٣٢، ثم محاولة معروف الرصافى فى نشر مقطوعاته الشعرية على ألسنة الحيوان عام ١٩٢٢، غير أن ذيوع اسم الرصافى (١٨٧٥ - ١٩٤٥) فى الأوساط الأدبية والإعلامية، لم يكشف عن أسبقية منظومات د. مصطفى جواد للأطفال والتى كتبها فى مطلع شبابه من مثل: الهر والفيران، واللقلق والعصفور وغيرها.

وفى عام ١٩٣٤ أصدر الأب نيقولا المخلصى كتابه «أمثال لافونتين» والذى تضمن زهاء مائة وثمانى عشرة خرافة من خرافات لافونتين، فى نظم شعرى يقوم على محاكاة شبه كاملة لحكايات لافونتين الخرافية، وتعد محاولة الأب نيقولا المخلص أبرز البدايات فى أدب الطفل فى لبنان. وفى عام ١٩٣٤ شهدت مصر أيضا، اهتماماً أدبيا بالطفل حينما أصدر محمد سعيد العريان مجموعة من القصص المدرسية بالاشتراك مع زميليه دويدار ومحمد زهران، وكان هذا الإنتاج القصصى يتناغم مع جهود الهراوى وكامل كيلانى فى الشعر والقصة الشعرية.

استمرت المجلات المدرسية فى بغداد تهتم بأدب الطفل، مع

مجلات الأطفال العامة وبخاصة مجلة «الفتوة» التى نشرت منظومات شعرية للأطفال، فنشرت للشاعرد. أحمد حقى الحلى(-١٩١٧م) وللشاعر عبد الستار القرة غولي بين أعوام ١٩٣٠ - ١٩٣٤. وقد جاءت منظومات د. أحمد الحلى فى أغلبها على ألسنة الحيوان والطير كما تضمن بعضها عظات أخلاقية وتمجيداً للوطنية، وقد جمعها بين دفتى كتابه الموسوم «المحفوظات الطفلية» ونشره فى جزءين عام ١٩٥٢، ولم تجمع منظومات الشاعر عبد الستار القرة غولى التى أشرنا إليها آنفا، فى كتاب مستقل، والتى سبق أن نشرها متفرقة خلال عامى ١٩٣٤و ١٩٣٥. وكانت مجلة «ابولو» الأدبية فى مصر منبرا للفنون الأدبية، فكانت تنشر للشعراء والكتاب، المقطوعات الشعرية تحت باب « شعر الأطفال» وأشهر من كتبوا فوق هذا المنبر كامل الكيلانى، الصاوى شعلان، بركة محمد. وعلى عبد العظيم، واستمرت مجلة أبولو تنشر المنظومات الشعرية للأطفال إلى أن احتجبت عام ١٩٣٤. ثم يضع الشاعر اللبنانى جبران النحاس ديوانه الموسوم «تطريب العندليب» الذى أصدره عام ١٩٤٠ وهو مقطوعات شعرية للأطفال تأثر نظمها بحكايات لافونتين الخرافية، والتراث الشرقى الأدبى، فجاءت منظوماته تحت دائرة «اللون القصصي الشعرى» الذى راده محمد عثمان جلال فى كتابه: «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ» بهدف تعليمى وأخلاقى. وفى

عام ١٩٤٤ أصدر محمد محمود رضوان مجموعة مسرحيات دينية لتلاميذ المدارس فى قالب فنى(٢٢) مما شجع حركة التأليف للمسرح المدرسي والتمثيليات المدرسية، وبعد تلك المحاولة توالت المؤلفات الخاصة بأدب الطفل، فى القصة وفى الشعر والمسرحية وغيرها من فنون أدب الطفل. نستطيع الوقوف عند تلك الفترة الزمنية التى حاولنا خلالها رصد البعد التاريخى لنشأة أدب الطفل العربى الحديث، وهى فترة زمنية امتدت من منتصف القرن الماضى إلى ثورة يوليو ١٩٥٢ م ويمكن القول إن نتاج أدب الطفل تمحور عند ظاهرتين:

أولاهما : (الترجمة) والاقتباس والمحاكاة عن الآداب الأجنبية فى الشعر والنثر.

والثانية : (التأليف) الشعرى والقصص التمثيلى (المسرحى).

فالظاهرة الأولى كان رجالها يحاكون ويقتبسون ويترجمون عن الآداب الأجنبية فى مجال أدب الأطفال والفتيان، وبخاصة حكايات لافونتين وأيسوب وغيرهما، أما الظاهرة الثانية فقد بدأ رجالها ينشئون فى بيئتهم العربية منظومات شعرية وحكايات قصصية ومسرحيات دينية خاصة بالأطفال فى أصالة ووعى كبيرين.

لقد بدأت الظاهرة الأولى فى الزوال التدريجى بتأثير النمو المطرد لحركة التأليف الواسعة الممثلة للظاهرة الثانية وبخاصة فى العقود

الأربعة الأخيرة من القرن الحالى. بقيت الاشارة إلى أن رصدنا للبعد التاريخى فى مجال أدب الطفل توفر على استقراء التطور الزمنى عند الكتابة خارج المنهج المدرسى المتضمن بين ثناياه الأناشيد والمقطوعات والقصائد والقصص، لأن مؤشرات الكتابة الإبداعية للطفل خارج العملية التعليمية تخلق لنا بداية المناخ الملائم لأدب الطفل.

عرفنا ونحن نستقرىء نشأة أدب الطفل وتطوره فى الأدب العربى الحديث، الإرهاصات المبكرة التى شهدت ميلاد هذا اللون الأدبى المستحدث، وقد خرجت أصوله الأولى كجنس أدبى من بين ثنايا التربية فى إطارها المدرسى، كما ظهرت فى الدوريات العامة والمتخصصة لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى الحديث، المفاهيم والعناوين والمقالات التى تتآزر مع النتاج الأدبى للطفل الدالة على دوران «أدب وأدبيات الطفل» فى مناخنا الثقافى العام، واستتبع ذلك قيام حركة تأليفية نشطة حول هذا اللون الأدبى المستحدث، قامت فى البداية على الترجمة والاقتباس والمحاكاة للآداب الأجنبية ثم انتقلت منذ عشرينيات القرن الحالى إلى طور التأليف المستقل فى مجال أدب الطفل.

وفى أخريات الأربعينيات من هذا القرن، كانت البيئة العربية تلتفت إلى جانب حيوى يتصل بالدراسات العامة لمعرفة الخصائص

الدالة على أدب الطفل كجنس أدبى له علاقات ترابطية بعلوم شتى كعلم نفس النمو ونظريات التربية الحديثة وسيكولوجية القراءة ومباحث الانقرائية، ومع هذه العلوم برزت نتائج جديدة خاصة باللغة وتحليل محتوى (مضمون) أدبيات الطفل، وبالتالى ظهرت المؤلفات فى المكتبة العربية التى تتناول القضايا الرئيسية لأدب الطفل. فى البداية أصدر الباحث محمد لطفى أول دراسة عربية خاصة بالقراءة والانقرائية عند الطفل متضمنة نتائج بحوث ميدانية أجراها على الطفل المصرى، وأوضحت تلك الدراسة الرائدة العوامل التى تؤدى إلى سهولة أو صعوبة المادة المقروءة مثل بعد المادة المقدمة للطفل عن مجال خبراته، وتقديم مفردات لغوية غير مألوفة لدية، وتعقيد تركيب الجمل والفقرات، ثم صعوبة أفكار المادة المقروءة على ادراك الطفل، وأفادت الدراسة كتاب الطفولة فى إمكانية توخى السهولة وتبسيط المعجم اللغوى، وليس من شك أننا واجدون عشرات المقالات الخاصة بالقراءة والانقرائية قبل أن ينشر محمد لطفى دراسته[٢٣] فى كتاب مستقل، وتوزعت هذه المقالات المتفرقة على المجلات المدرسية والتربوية، والمجلات الأدبية[٢٤]. ومع ذلك فالمكتبة العربية المعاصرة تنتظر دراسات متعمقة حول ذلك الرافد الهام بحيث تتناول الميول والاتجاهات الأدبية والفنية عند الناشئة من خلال تذوق وقراءة النصوص المقدمة للطفل وعن طريق بحوث الذكاء والموهبة، والجنس

والوراثة والصوتيات، والفروق الفردية عند الأطفال وعلاقتها جميعا بالطفل وثقافته، لأن معظم المؤلفات العربية[٢٥] في هذا المجال توفرت على جانب الدراسات الببليوجرافية والخدمات التربوية المكتبية، وتقنيات طباعة وإخراج مادة أدب الطفل، وأما الاستقراء العلمى لميول الأطفال فيما يشوقهم أو يصعب عليهم من نصوص أدبية فهو ما نرجوه من رجال هذا المجال، وبالتالى المساهمة فى تقديم ما يلائم الأطفال من أدب خاص بهم. والمحاولة الثانية فى مجال المؤلفات العامة ذات العلاقة بأدب الطفل ظهرت فى مصر عام١٩٥٦ من خلال كتاب حمل عنوانا طويلا وهو كتاب «القصة في التربية...»[٢٦]، وهو من الكتب التى أسهمت بفاعلية فى تحريك الأدب إلى عامل الحسم فى التربية الوجدانية للطفل وقد وضع مؤلفه أسس العلاقة بين الأدب والتربية من خلال الأدب كوسيلة وجدانية مؤثرة، وقد ناقش الكتاب أهمية النص الأدبى فى بناء شخصية الطفل مع تعرض الكتاب للقواعد الفنية للنص وأساليب وعناصر الحكاية فى مجال أدب الطفل، وأعقب ذلك ظهور كتاب «فن الكتابة للأطفال»[٢٧] الذى أصدره أحمد نجيب عام ١٩٦٨، والكتاب عبارة عن أشتات مجتمعات من الأفكار الممتازة حول كيفية الكتابة للطفل وأساليب طباعة وإخراج كتب الأطفال، وقد فجر المؤلف فى هذا الكتاب العديد من القضايا الفنية والطباعية الهامة، ومع ذلك فقد عرض بعضها فى

عجالة فى حين أنها تتطلب العمق والتأصيل، وبخاصة ما يلائم كل طور من أطوار مرحلة الطفولة من أنواع أدبية. ويحسب لهذا الكتاب أنه نبه إلى بعض الأسس والمعايير التى تصلح للحكم على النصوص أو الأنواع الأدبية، والإشارة إلى ما يلائم تذوق الطفل واستيعابه لتقنيات الطباعة المستخدمة فى إعداد كتب الأطفال. ولعل أهم كتاب اقترب من مفهوم أدب الأطفال هو الذى نشرته الجامعة الليبية عام ١٩٧٣ بعناية كلية التربية بطرابلس وعنونه مؤلفه د. على الحديدى بـ (الأدب وبناء الإنسان) وهوتتمة لجهود مؤلفه فى الحقل التدريسى بكلية البنات بجامعة عين شمس والتى يتوفر أحد أقسامها العلمية لدراسة الطفولة من ناحية، وتكملة لمقالة مطولة نشرها بمجلة كلية التربية بالجامعة الليبية عام ١٩٧٢. والكتاب فى مجمله دراسة حول الأدب والطفل بشكل عام، والأدب القصصى والطفولة بصورة أدق. ومهما يكن من شىء فإن جهد المؤلف فى تتبع نتاج أدب الطفل ومفاهيم فى الأدبين العربى والاجنبى، ومناقشته لتاريخ أدبيات الطفل – وبخاصة الأدب القصصى – تعد من أول ما قدم من دراسات أدبية تربوية للمكتبة العربية فى مجال أدب الطفولة، وبرغم ذلك فإن الكتاب لم يعمق بعض القضايا التى طرحها (كموضوع الشعر والأطفال)[٢٨] الذى قدمه المؤلف فى صفحات قليلة متسرعة من كتابه، ويبدو أن الفكرة الأصلية كانت قائمة فى أساسها على أجناس أدبية

محددة مثل القصص والحكايات فى الاطار الفنى والتربوى، كما أن المؤلف توسع فى عدد الموضوعات والقضايا التى طرحها فى كتابه، وبرغم هذافقد ألفينا فى فصول هذا الكتاب الرؤى المتجددة حول الأدب العلمى والتاريخ الأدبى لهذا الجنس الأدبى المستحدث (أدب الطفولة) ونتفا من الآراء والمفاهيم النقدية ألفيناها بين ثنايا موضوعات الكتاب. ومن ناحية أخرى ألفينا د.على الحديدى يطرح فى كتابه فكرة: الأدب وطفل السنتين، الأدب وطفل الثلاثة، الأدب وطفل الرابعة. ومع ذلك رأيناه يعبر - سريعا - فوق قنطرة هذه الموضوعات الهامة المتعلقة برياض الأطفال إلى رؤوس موضوعات أخرى جديدة.

وفى العراق صدر فى عام ١٩٧٧ أحد الكتب الهامة للدكتور هادى نعمان الهيتى جعل عنوانه «أدب الطفولة، فلسفته، فنونه، وسائطه»(٢٩) والكتاب فى مجملة إضافة جديدة فى ميدان أدب الطفولة، فالكتاب يتسم بغزارة مادته وتنوع مقاصدها، فقد استعرض المؤلف فى كتابه (الوسائط) الأدبية كالكتب والموسوعات والمعاجم، والوسائل الاعلامية كالصحافة العامة والصحافة المتخصصة للطفل والبرامج المسموعة والمرئية، وكنا نود لو احتفل المؤلف بدراسة الأجناس الأدبية وكذلك مسرح الطفل (دراسة أدبية متعمقة) على نحو ما تناول فى عمق وتحليل مفاهيم جمهور الطفولة

والميول القرائية والوسائط الإعلامية والثقافية وغيرها من الموضوعات ذات العلاقة بالطفل، ومهما يكن من شىء فإن صوت شعر الطفولة[٣٠] فى هذا الكتاب الذى يحمل عنواناً أدبيا براقا (أدب الأطفال) لم يسود سوى بضع صفحات من الباب الثالث، ويبدو أن مؤلفه قد تدارك ذلك فى كتاب جديد اسمه «ثقافة الأطفال»[٣١] والذى صدر عام ١٩٨٨ وأزعم أنه إضافة قيمة للدراسات الأكاديمية حول أدب الطفل العربى.

وفى عام ١٩٨٥ أصدر الشاعر أحمد سويلم (١٩٤٢-) دراسة عامة حول شعر الطفولة جعل عنوانها «أطفالنا فى عيون الشعراء» وهى من المؤلفات الأدبية المعاصرة التى تناولت أدب الطفل بعامة وشعر الطفولة بخاصة، وقد فتحت هذه الدراسة العامة الأبواب الموصدة أمام المبدعين والدارسين حول الطفل وأدبه ومن خلال رؤية إبداعية تتناول القضايا الخاصة بهذا اللون الأدبى، ولا يعيب تلك الدراسة - فيما أرى - سوى تناولها المتعجل لموضوعى: مفهوم الأدب، وشعر الأطفال فى التراث العربى، والمرجح أن المؤلف لم يف هذين الموضعين حقهما من التأريخ والتحليل. وليس معنى ذلك أن الدراسة قد أخفقت فى طرح باقى قضاياها الخاصة بشعر الطفولة، بل نعدها - فى ضوء تناولها لباقى موضوعات الدراسة - أقرب الدراسات العامة المعاصرة إلى أدب الطفل العربى بمعناه الفنى، فقد

نجح الشاعر/ المؤلف - ربما عن قصد - فى الابتعاد عن الحشو التربوى والإعلامى المتكررين فى معظم الدراسات السابقة، وتوجه إلى فن الشعر - شعر الأطفال - يعرض لبعض نماذجه من خلال تناوله لنتف مختارة فى الأدبين القديم والجديد.

* * *

يؤرخ العديد من الدارسين الذين تناولوا التأريخ لأدب الطفل لعام ١٨٧٥م كبداية لنشأة أدب الطفل فى الأدب العربى الحديث، دليلهم إصدار رفاعة الطهطاوى لكتابة الموسوم «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين».

بينما الترجيح الأقرب إلى الصواب لميلاد أدب الطفل العربى يعود فى عام ١٨٧٠م وهى السنة التى شهدت إصدار مجلة «روضة المدارس المصرية»(٣٢) ولا يعنى ذلك التاريخ الأخير أنه يقترن بصحافة أدبية فحسب وإنما بصحافة متخصصة كانت تتوجه - يومئذ - فى أساسها إلى تلاميذ مدارس الديار المصرية، وتهتم باللغة، والأدب وبكتابات التلاميذ قدر اهتماماتها الثقافية أو المعرفية الأخرى «إذ حافظت روضة المدارس على اللغة العربية الفصحى، فاتخذتها لغة أدائها، ووسيلة تحريرها، واختارت من كتابها وأعضاء مجلس تحريرها، ونوابغ التلاميذ فى المدارس والمعاهد من استقامت لغتهم، وسلمت عبارتهم»(٣٣).

ومما يؤكد أهمية الدور الذى لعبته مجلة «روضة المدارس» طبيعة دورها الثقافى بعامة والأدبى بخاصة، بين جمهور تلاميذ المدارس المصرية دون توقف عن الصدور من عام ١٨٧٠م إلى عام ١٨٧٧م، وربما أهم دور قامت به المجلة هو توفرها على إصدار الملاحق والكتب مع أعدادها (النصف شهرية)، ومن بين تلك الاصدارات كان كتاب «كنز اللآل فى الحكم والأمثال» لأحمد بليغ، فقد «شهد العدد الثامن عشر من السنة الثانية من روضة المدارس «مولد ملحق لكتاب جديد هو (كنز الال فى الحكم والأمثال) من مترجمات أحمد بليغ.. وهذا الكتاب على السنة الحيوان والطير، وهو شبيه بحكايات لافونتين».[٢٤] ومن المعروف أن كتاب محمد عثمان جلال (١٨٢٨ - ١٩٩٨) الموسوم «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ» يعده كثير من الدارسين من أوائل كتب أدب الأطفال فى مصر.

ولكن استقراء الفترة الزمنية التى ظهرت خلالها طبعة (العيون اليواقظ) تبعا لمقولة أوردها الشاعر عامر بحيرى فى صدر الطبعة المحققة لها عن (طبعة عام ١٩٠٨) والتى يقول فيها على لسان محمد عثمان جلال: «أخذت أترجم فى الأوقات الخالية كتاب العلامة الفرنسى الكبير لافونتين.. وهو من أعظم كتب الآداب الفرنسية المنظومة على لسان الحيوان، على نسق كتب الصادح والباغم،

وفاكهة الخلفاء.. وسميتها «العيون البواقظ فى الأمثال والمواعظ».. فلما تم طبعها عرضتها على العزيز عباس باشا .. فرمى كتابى فى وجه حامله».[٣٥] ومن الثابت تاريخيا ولاية عباس باشا الأول عرش مصر بين عامى ١٨٤٩ - ١٨٥٤م وفى ضوء تلك المقولة التاريخية يكون من المؤكد أن مؤلف «العيون اليواقظ» قد قدمه بعد أن تم طباعته إلى عباس باشا الأول فى فترة ولايته، ومع ذلك فهذه رؤية يدحضها العثور على الطبعة الأولى من «العيون اليواقظ» وهى نسخة أصلية فى حوزة المؤلف[٣٦] يرجع تاريخها إلى عام (١٣١٣ هـ ١٨٩٤م). إن اصدار «روضة المدارس المصرية» فى عام ١٨٧٠م ونشرها المواد الأدبية للطلاب والكتاب، يمثل فى ضوء ذلك مرحلة الريادة أو التأليف غيرالمسبوق فى الكتابة الأدبية للناشئين، لأن أغلب حكايات محمد عثمان جلال المترجمة على ألسنة الحيوان لا نعدها من التأليف المصرى الأصيل لاعتماد مؤلفها على تعريب لخرافات لافونتين، بينما «أحدثت روضة المدارس فى الوسط المدرسى والتعليمى حركة جديدة، وحركت همم الطلاب إلى اقتنائها، فقد كانت موضوعاتها ومقالاتها والفصول التى تنشر فيها موضوعا للمناقشة فيها بين الطلاب بعضهم بعضا من ناحية، وبين الطلاب ومدرسيهم من ناحية أخرى، وحرص الطلاب على قراءة المجلة، كما حرصوا على الكتابة فيها».[٣٧] كانت الروضة معرضا لأقلام كبار الكتاب

أمثال رفاعة الطهطاوى، وعلى رفاعة الطهطاوى، وعبد الله فكرى، وعلى مبارك، وصالح مجدى، وحسين المرصفى، وحمزة فتح الله، وعبد الله أبو السعود، ومحمد عثمان جلال وغيرهم، ومن نوابغ التلاميذ - يومئذ - محمود وهبى، ومحمد حشمت، ومحمود حمدى، وأحمد نجيب وإسماعيل صبرى وغيرهم من تلاميذ الديار المصرية.

ونستطيع القول فى اطمئنان، إن أول رافد ثقافى غذى مسار أدب الأطفال فى إطار انبثاقته الأولى فى مصر قد تمحور عند سائر النتاج الأدبى الذى نشرته «روضة المدارس المصرية» للطفولة والناشئة بين أعوام ١٨٧٠ - ١٨٧٧م، بما نشرته لتلاميذ المدارس مع أساتذتهم وكوكبة الأدباء فوق صفحات تلك المجلة الرائدة من كتابات تربوية ونصوص أدبية للناشئين، حقا لم يكن قد تأصل بعد المفهوم الاصطلاحى لأدب الطفل، ولكنه من الأنصاف القول بأن ميلاد أدب الطفل الحديث فى مصر سار فى خط مواز مع ميلاد مجلة روضة المدارس، كأول وأهم مدرسة واسعة الانتشار، حظى الأدب بنصيب موفور فوق صفحاتها، من التلاميذ أنفسهم وإليهم.

لقد توفر تلاميذ الطهطاوى على اصدار كتابه الموسوم «المرشد الأمين» فى عام ١٨٧٥ بعد أن نشره فصولا فوق صفحات روضة المدارس، وفى سلسلة ملاحقها الدورية، هذا الكتاب الذى يعده نفر

من الدارسين البـذرة الأولى. وقـد ألمحنا إلى نشـأة أدب الطفل فى مصـر عن طريق ترجـمـة أصـول حكايات (لافـونتين) فى «العيـون اليواقظ» لمحمد عثمان جلال، ثم تلتها حركة ترجمة أخرى لمحمد بليغ فى عـام ١٨٧٥م عندمـا اهتـمت «روضـة المدارس» بالأدب الوعظى والنصائح الأخلاقية على يد رفاعة الطهطاوى بإصدار كتاب «المرشد الأمين» والذى نشرته «روضـة المدارس» فصـولا اعتبـارا من العدد السادس عشر من سنتها الخامسة إلى أن ظهر مستقلا فى كتاب سنة ١٢٩٢هـ - ١٨٧٦م ويميل المؤلف إلى رأى الأسـتاذ المجـمـعى المرحوم محمد عبد الغنى حسن القائل بعد تفصيل محكم لأبواب «المرشـد الأمين» : أنه كـتـاب تربوى أخـلاقى فى أسـاسـه، مع نتف أدبية تجيء عرضا فى ثناياه وتتعلق بالأدب والطفل فيذكر:

«.. رتب رفاعة الطهطاوى كتابه هذا على مقدمة وأبواب مشتملة على فصول وخاتمة، فتحدث فى الباب الأول عن الإنسان ونسبته إلى غيره من المخلوقات، وفى البـاب الثـانى تحدث عن الصـفـات التى يشترك فيها الذكور والاناث والصفات التى ينفرد بها كل جنس، وفى الباب الثالث تحدث عن التعليم وأنواعه، وهنا فى هذا الباب يحدثنا الشيخ عن الوطن حديثا مؤثرا فيه بعض الأسجاع، وفى باب آخر يحدثنا الشيخ عن الزواج والتسرى... وفى باب سادس يحدثنا عن

أسباب عمار البيوت والمنازل، وفى باب سابع يحدثنا عن الأقرباء وحقوق بعضهم على بعض، وخص بر الوالدين بفصل من فصول هذاالباب..».[٣٨] لو أعدنا قراءة فقرة من مقدمة «المرشد الأمين» سنكتشف المقاصد التربوية التى من أجلها تم تصنيف هذا الكتاب يقول الطهطاوى: «صدر لى الأمر الشفاهى، من ديوان المدارس، بعمل كتاب فى الآداب يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية».[٣٩] إن تكليف الطهطاوى بعمل كتاب فى الآداب، لا يعنى التصنيف الأدبى بمعناه الفنى، والمرجح أن المقصود بـ (الآداب) فى عبارته هو تأكيده على الآداب فى إطارها الاجتماعى الأخلاقى، فى السلوك والعادات، على نحو ما قال به - آنفا - الأستاذ محمد عبد الغنى حسن، هذا من ناحية، ومن الرؤية التعليمية الجديدة بعد، دخول البنات - كالصبيان - ميدان التعليم من ناحية أخرى.

فالكتاب فى ضوء ما عرضنا ليس من أوائل الكتب التى يؤرخ بها الدارسون لميلاد أدب الطفل، وإنما نزعم أن روضة المدارس - بما نشرته من مواد أدبية تخاطب أفهام التلاميذ ومشاعرهم، وما نشرته لبعض التلاميذ - هى أول شمعة فى ميدان أدب الطفولة قبل سواها من الدوريات العامة أو المتخصصة، وبخاصة بداية ولوج ميدان التأليف فى أدب الطفولة، أما الأدب المترجم فقد وقفت ريادته عند

محمد عثمان جلال في منتصف القرن التاسع عشر،

لقد احتلت «روضة المدارس» مكانة خاصة فى الصحافة الرسمية. كانت هذه الجريدة التى أنشأها على مبارك عام ١٨٧٠ بغرض دعم الجهاز التربوى الذى أقامه، تستهدف تشكيل عقول وأحاسيس التلاميذ والمثقفين، وقد عهد بإدارتها إلى الطهطاوى الذى أصبح رئيساً لتحريرها، وكانت هيئة التحرير تضم أشهر الأسماء في ذلك العصر(٤٠).

إن اهتمام «روضة المدارس» بنشر الأنواع الأدبية، بشكل منتظم فى المقامة والقصة بأنواعها، والشعر، وشعر الألغاز، والمقالات الأدبية إلى جانب الموضوعات العامة الأخرى - ساهم فى تشكيل قاعدة عريضة من التلاميذ القراء وفى تشجيع النوابغ وهواة الأدب منهم لذلك ألفينا روضة المدارس روضة ذاخرة بالأنواع الأدبية متنوعة الأساليب والاتجاهات، تستهدف فى بنيتها ومضمونها - فى كل عدد - تلاميذ المدارس المصرية، ومن الطبيعى أن «روضة المدارس» بحاجة إلى بحوث علمية مستقلة فى التاريخ الأدبى والتربوى، والإعلامى، ولكننا لا نستطيع أن نهمل إيراد نموذج أو نماذج مما نشر بها فى ميدان الشعر على سبيل الاستشهاد، يقول الشاعر إسماعيل عاصم(ملغزا)(٤١):

مـا اسم شيء للناس بالنفع قـد عم نصـفـه مـهـمل وباقـيـه مـعـجم
ورباعى الحــروف فى العــد لكن حـــاز كل العلوم والله أعلم
نصـــــفــــه الأول رشف لذيذ تارة والهـــلاك يحــصل من ثم
وإذا مـــا قـــبلت ذا النصف تلقى أنه الزهر عــرفــه فــاح للشم
وترى نصـفـه الزهر به الخـسـران جــاد أو كــــان لفظا لم ذم
ولدى قلبـــه بدا القطع فـــيـــه تارة أو يرى كـــســــاء منمنم
واذا مـــا حــذفت طرفـــيــه تلقــا مكســوبا للمــال والمكسب مـغنم
وعلى كل حــالة لاغنى للناس عنه إن كــــان عــــقلهـــا ثم
فـتـفـضل وجـد بكشف رمـوز اللغـز هـذا لازلت فـــــيـنا مـكـرم

ولم تخل الأعـداد التـى صـدرت من «روض المدارس» الذى كـان أشبه بمباراة أدبية وفكرية بين الشعراء والقراء وجمهور التلاميذ، وحظيت عدة اسماء بشهرة فى هذا المجال أمثال اسماعيل عاصم بإسهاماته المتكررة، ومصطفى صبحى، وأسعد طراد، وأحمد نظمى، وحسين الشباسى ومصطفى جلال وغيرهم.

ومن الشعر الأخلاقى الذى نشرته روضة المدارس هذه المنظومة للشباسى[٤٢] :

البـــر بالأباء فـــرض لازم
من برهم فـــهـو النجى الحـازم
فـأطـع أباك وكن لأمك تحت رق
مسـتـرضـيـا لهم لئـلا تحتـرق
واحذر عقوقهما الذى قد حرما
ويحل صاحب المسرة جـهنمـا

وقد استهل محمد عثمان جلال منظومته «قواعد فى فن الشعر» بقوله:[٤٣]

لا تحسب المرء يكون ناظما ولا يعد فى القوافى عالما
ولا يكون فى القريض عده يعرف جذر بحره ومده
إلا إذا أوحى فى القوافى إليه بالمعنى الرقيق الشافى

إن أول ما نلاحظه من افتتاحية العدد الأول من «روضة المدارس المصرية» هو العناية بالأدب كأسلوب تربوى، يحقق الفائدة التعليمية للناشئين والكمال التهذيبى المستهدف لشخصياتهم، يقول على رفاعة الطهطاوى فى ذلك الشأن «إن مواد روضة المدارس ستجيء بقلم سهل العبارة، واضح الاشارة، وألفاظ غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب، ومعان رجيحة تنخرط فى سلك مستحسن الأساليب وافية بكمال التهذيب».[٤٤]

إن احتفال مجلة روضة المدارس باللغة العربية وآدابها، أسلوبا ومعنى، سار فى خط موازٍ لغايات المجلة الأدبية، ومقاصدها التربوية، ولعل الخطوات التى قطعتها روضة المدارس فى مسار أدب الأطفال المكتوب كان تتمة لجهود رفاعة الطهطاوى التى سبقت اصدار الروضة عندما «أدخل قراءة القصص والحكايات فى منهج الدراسة لتلاميذ «مدارس المبتديان» على عهد محمد على بمصر».[٤٥]

وليس غريبا أن يضع ابنه «على» شعار روضة المدارس:

تعلم العلم واقرأ   تحز فخار النبوة
فالله قال ليحيى   (خذ الكتاب بقوة)(٤٦)

ويزعم المؤلف – فى ضوء ما تقدم – أن أدب الأطفال العربى، نشأ وتكون فى مصر حول مجلة «روضة المدارس المصرية» تأليفاً موجزا وانتشارا، غير أننا واجدون قبل ذلك بنحو عقدين من الزمان إرهاصات تكون أدب الطفل ولكن فى اطار الترجمة للطفولة والتى شملت القصص والحكايات والأمثال. لقد أسهمت روضة المدارس فى تعبيد الطريق أمام نشأة أدب الأطفال، بما نشرته للتلاميذ من مواد أدبية، وبما خلقته من وعى قرائى بينهم.

ولو تركنا مجلة «روضة المدارس» للوقوف عند روافد أخرى شكلت ارهاصات نشأة أدب الطفل فى الأدب العربى الحديث، لألفينا ترجمة لـ «عقلة الصباع» و«حكايات الأطفال» لتلاميذ المدارس الأولية فى إطار ترجمة الكتب الأجنبية الحديثة لتلاميذ المدارس، إذ كانت «حكايات الأطفال» و«عقلة الصباع» من أوائل الكتب التى قررتها نظارة المعارف – يومئذ – على تلاميذ الصفين الأول والثانى بمدارس المبتديان فى مصر(٤٧).

وفي عام ١٨٨٣ ترجم الأب «يوناوفتورا» كتاب (لطائف الأقوال فى القصص والأمثال)(٤٨) عن الآداب الأجنبية، فى جزأين يضمان اثنتين وستين قصة ومثلا، والكتاب في مجمله ترجمة للأقوال البليغة،

الأمثال الحكيمة والقصص الشعبية في الآداب الأجنبية مما يحقق للأطفال المتعة والفائدة.

وعندما صدرت الطبعة الأولى من ديوان «الشوقيات» عام ١٨٩٨ وتضمنت – ربما لأول مرة في تاريخ أدبنا العربي الحديث – منظومات شعرية للأطفال، فبتلك المقطوعات الشعرية للأطفال أعلن «أحمد شوقي» عن ميلاد أدب الأطفال العربي الحديث، ومن ثم راح يدعو إلى إقامة هذا الجنس الأدبي المستحدث، وكان يأمل – يومئذ – خيرا فيذكر: « ... أتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستحدثة: منظومات قريبة المتناول ويأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم..»[٤٩].

وفي عام ١٩٠٣ أصدر علي فكري (١٨٧٩ – ١٩٥٣) كتابه الموسوم «مسامرات البنات»[٥٠] وبرغم أن هذا الكتاب يقع في جزأين إلا أنه كتاب اجتماع وتربية بل تضم أغلب مادته شئون العقيدة، ولا يحتوي إلا على قدر ضئيل من أخبار النساء والفتيات من ملح وطرائف أدبية في إطار التهذيب الأخلاقي لكن صاحب «مسامرات البنات» أسهم في تأصيل أدب الطفل بمؤلف أدبي آخر سنشير له من بعد. وفي عام ١٩٠٨ أعيد طبع «العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ» لمحمد عثمان جلال أي بعد وفاته بعشر سنوات.

ويشهد عام ١٩١١ ظهور كتاب جديد يسترفد خرافات لافونتين

والتراث القصصى العربى وهو كتاب «آداب العرب» للشاعر إبراهيم العرب (– ١٩٢٧) وتقع منظومات الكتاب فى تسع وتسعين قصة شعرية، ومن الأدب الوعظى الحكيم على ألسنة الحيوان والطير ويقول فى مفتتح كتابه:(٥١).

وبعد فهذى حكمة ومواعظ لتهذيب أخلاق وإصلاح أحوال
بهن معان كالعيون سواحر وألفاظ در كل بحر بها حال
على الطير فى جو السماء أخذتها وفى القفر عن ظبى وذئب ورئبال

وفي عام ١٩١٢ أصدرت دار المعارف أول كتاب أدبى مصور للأطفال وهو «القطيطات العزاز» لمحمد حمدى بك بالاشتراك مع جورج روب، وفى اطار الترجمة أيضا صدرت المجموعة القصصية «كنوز سليمان» وترجمها أمين خيرت، عن الكاتب الإنجليزى رايدار هاجرد، وتجمع القصص بين التشويق وحفز الخيال، وتوفر على اصدارها مطبعة جورجى غرزوزى فى عام ١٩١٤م.

وفى عام ١٩٦٦ يسهم على فكرى (١٨٧٩ – ١٩٥٣) بكتاب أدبى جديد للناشئين عندما أصدر كتابه الموسوم «النصح المبين فى محفوظات البنين»(٥٢) الذى جمع بين المنظوم والمنثور والأمثال البليغة والأقوال الحكيمة، والأشعار التى تحث الأطفال على الفضيلة ومكارم الأخلاق. ومما نلحظه فى تصنيف هذا الكتاب أن صاحبه استعار كتابات الرافعى، وشوقى، ونصيف اليازجى وغيرهم، وضم اختياراته

من أشعارهم إلى «النصح المبين» وفي الواقع أن علي فكرى بكتابه «النصح المبين»، قد أضاف إلى المؤلفات الأدبية الحديثة زاداً جديداً لأنه أحس أن مصنفاته[٥٣] الأخرى وإن اقترنت مسمياتها بالطفولة إلا أنها أقرب للعقيدة والتربية والاجتماع منها إلى الفنون الأدبية.

وفي عام ١٩٢٢ قام الشاعر محمد الهوارى (١٨٨٥ - ١٩٣٩) باصدار أول ديوان شعرى عربي حديث للأطفال، أسماه «سمير الأطفال» وهي محاولة أدبية رائدة، فحكايات أحمد شوقي في منظوماته الشعرية التي أودعها الجزء الرابع من ديوان الشوقيات، تختلف عن محاولة الهراوى الرائدة التي وقفت على التأليف الشعرى المستقل، إذ اشتملت على أول ديوان مستقل للطفل العربي.

وفي عام ١٩٢٣ قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر بنشر ديوان جديد للهراوى هو، «سمير الأطفال للبنين» جـ١ «سمير الأطفال للبنات» جـ٢ ، وفي عام ١٩٢٣ أيضا أعيدت طباعة «سمير الأطفال» للبنين و«سمير الأطفال» للبنات في طبعة ثانية مزيدة ومنقحة كتب عليها الهراوى «الجزء الثاني..» وفي نفس العام أيضا أصدر الهراوى الجزء الثالث من «سمير الأطفال» للبنين والبنات، في طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة أيضا، وفي ذلك دلالة لا تقبل التقليل من ريادة الهراوى لشعر الأطفال فنفاذ ثلاث طبعات من ديوان الطفل في عام

واحد يحمل مصداقية الشاعر ويعكس استقبال جمهور الأطفال ورجال الأدب والتربية لمضمون الديوان، فوى عام ١٩٢٦ أصدر محمد الهراوى كتابه الموسوم «السمير الصغير» ثم توالت بعد ذلك إبداعاته الشعرية والتمثيلية للناشئين - فى غزارة وأصالة وتنوع- لمرحلتى رياض الأطفال وتلاميذ المدارس الأولية ولجمهور الطفولة وللآباء والأمهات خارج المدرسة(٥٤).

وفى عام ١٩٢٧ راد الأديب كامل الكيلانى (١٨٩٧ - ١٩٥٩) التأليف القصصى للأطفال فأصدر قصته «السندباد البحرى» كأول محاولة قصصية حديثة يقوم بها أديب عربى بالتأليف للطفل خارج المقررات المدرسية، وأتبعها بمكتبة كاملة للطفولة طبعت فى حياته مرة وبعد وفاته عام ١٩٥٩، ثم قام الشاعر محمد الهراوى باصدار مجموعة من الأغانى التوقيعية للأطفال بين عامى ١٩٢٨، ١٩٢٩ والطريف أنه أثبت مع أغانيه الشعرية للأطفال ««النوتة» الموسيقية مثل: بائع الفطير، وأغنية جحا والأطفال، شمس الضحى، ليلة القمر وغيرها.

وبدأ محمد الهراوى يسهم برواياته التمثيلية القصيرة للأطفال مثل «عواطف البنين» و «حلم الطفل ليلة العيد»، «والحق والباطل» وكان قد أصدر فى عام ١٩٢٦ مسرحية شعرية ذات فصل واحد

للأطفال أسماها «الذئب والغنم».(٥٥)

في ضوء ذلك نستطيع القول إن شعر الطفولة بلغ ذروته بمؤلفات الشاعر محمد الهراوى أحد رواد شعر الطفولة في الأدب العربى الحيث في مصر.

وفي عام ١٩٢٩ أصدر حامد القصبي كتابه الموسوم «التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل» ويبدو عن عنوان هذا الكتاب أن صاحبه بدأ ينبه أقرانه من رجال التربية والتعليم إلى أهمية فن القصة للأطفال خارج المدرسة كوسيط تربوى ينمي الميول القرائية والأدبية، ولا يعيب محاولة حامد القصبي سوى الاعتماد على الاقتباس عن أصول بعض القصص الإنجليزية التى وجدها ملائمة للتلاميذ، بينما توجد أفكار تلك القصص التى اقتبسها في الأدب العربى.

وطوال عقد الثلاثينيات من القرن الحالى كان النتاج الأدبى لمرحلة الطفولة في أطوارها المختلفة ينمو ويتنوع ، بفعل جهود التأليف للأطفال التى رداها رائد المؤلفين كامل الكيلانى الذى اتسم إنتاجه للأطفال بالاصالة والغزارة فقدم عشرات القصص لكل طور من أطوار مرحلة الطفولة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن مكتبة كامل كيلانى للاطفال تعدل في قيمتها الفنية ودرجة الإقبال عليها من جمهور

الاطفال والآباء والأمهات ، ما حققته كتابات هـ . اندرسن فى الادب الغربى ، ويشير الى ذلك الاستاذ محمد مصطفى الماحى فى مقالة مطولة عنوانها " أدب الطفل " فيذكر: «... وكلنا نعرف فضله وسبقه (كامل الكيلانى) فى هذا الميدان، ونعلم كيف استقبل العالم العربى بل كيف استقبلنا – نحن الآباء – تلك المنتجات الفكرية كفتح فى أدب الأطفال ..»(٥٦).

كما يؤكد شاعر القطرين «خليل مطران» على ريادة الكيلانى فى إنشاء مكتبة الأطفال القصصية فيذكر «.. لو لم يكن للأستاذ الكيلانى من فضل إلا أنه المبتكر فى وضع (مكتبة الأطفال)، بلسان الناطقين بالضاد، فكفاه فخرا بها، ما قدمه لرفع ذكره، وما أحسن به إلى قومه وعصره».(٥٧)

وقد شهد عقد الاربعينيات من القرن الحالى اهتماما بأدب الطفل بين رجال التربية الحديثة فى مصر، وهو اتجاه مستحدث وضع بنوره ومهد التربة له وتعهده بالرى والتأصيل كوكبة الأدباء الرواد من زمن «الشوقيات» (أحمد شوقى)، ودووابن «سمير الطفل» (الهراوى) إلي مكتبة كامل الكيلانى للأطفال. فى عام ١٩٤٤ عمق محمد محمود رضوان أحد الميادين الجديدة فى أدب الطفل وهو مسرح الطفل، الذى وضع نواته الأولى فى العشرينيات محمد

الهراوى، فكتب محمد محمود رضوان مسرحياته المستوحاة من التاريخ الإسلامى وعنونها بـ «قصص إسلامية» ولقيت مسرحياته رواجا كبيرا فى المسرح المدرسى، توالت بعد ذلك الكتابات القصصية والمنظومات الشعرية والمسرحيات النثرية للأطفال من جانب رجال التربية والتعليم أمثال: محمد سعيد العريان وأمين دويدار ومحمود زهران، وتوفر أحمد برانق على كتابة القصص الدينى وسيرة أمهات المؤمنين، بينما توفر سعيد العريان وأمين دويدار ومحمود زهران على إصدار القصص المدرسية من مثل: «الصياد التائه» و«الطيور البيضاء» و«النهر الذهبى» و«أصحاب الكهف» و«شجرة الشعر» و«ساقية العفاريت» و«الحظ الجميل» وغيرها. وقدم محمد عطيه الابراشى مجموعة قصص وحكايات للأطفال مستوحاة من أصول شرقية وغربية مثل «زهرة السنط» و«النمر الأسود» و«الموسيقيون الثلاثة» و«راعية الإوز» وغيرهما.

وفى عام ١٩٤٧ نشر لمحمد فريد أبو حديد قصة خيالية مثيرة للأطفال تحت عنوان(عمرون شاه) وبطلها عقلة الأصبع الذى استطاع أن يغلب الساحر الماكر الذى سحر المدينة الكبيرة، ومسخها أرانب وفئران، وأشكالا حجرية، وفى النهاية استطاع عقلة الأصبع أن يعيد الحياة إلى المدينة، وأتبع ذلك – وفى نفس العام –

بأن أصدر قصة جديدة مشوقة بعنوان «كريم الدين البغدادى» وهى كسابقتها مليئة بالمفاجآت والحوادث الخيالية.

ولم يهمل رجال التربية والتعليم الذين اهتموا بأدبيات الطفل فى المنهج الدراسى وخارج المدرسة - لم يهملوا الأدب الشعبى فصاغوا مجموعة من القصص الشعبى بعد تبسيطه فى أسلوب جميل ولغة مهذبة مثل: ألف ليلة وليلة، وعنترة بن شداد، وسيف بن ذى يزن، وأبو زيد الهلالى، والأميرة ذات الهمة، حيث اشترك فى تأليف مجموعة القصص الشعبى للناشئين من رجال التعليم والتربية: محمد أحمد برانق وحسن جوهر وأمين أحمد العطار.

وشهد عقد الأربعينيات من القرن الحالى أيضا، ازدهار رافد جديد هو إعادة ظهور صحافة الأطفال مرة أخرى بعد أن احتجبت مجلة «روضة المدارس المصرية» عن الصدور فى عام ١٨٧٧، وكانت إرهاصات عودة الصحافة المتخصصة للأطفال وليدة الإحساس الوطنى فى مواجهة غزو الدوريات والمترجمات الأجنبية، ومع ذلك فقد كانت البداية متواضعة عندما صدرت مجلة (بابا صادق) فى عام ١٩٤٣ ومجلة (البلبل المصورة) التى اتبعتها فى الصدور عام ١٩٤٦، ثم مجلة (على بابا) عام ١٩٥١، ثم توالت بعد ذلك إصدارات مجلات الأطفال مثل مجلة (سندباد) فى عام ١٩٥٢ ومجلة (سمير) فى عام

١٩٥٦ من «والت ديزنى» و(مـيكى) ابتـداء من عـام ١٩٥٩ ومـجلة (كروان) كـمـا صـدرت طبـعـات عربية من الدوريات والكتب الأجنبـية للأطـفـال مـثل: المعـرفـة والهـدف ٢٠٠٠، ووالت ديزنى، وتـان تان وغيرهما، ومـا زالت صـحافة الأطفال إلى وقتنا الحاضـر فى أغلب مضـامينها تسـرد القيم الوافدة وتنمى الغزو الثقافى الأجنبى فى الوسـائط الإعـلامـيـة للطفـولة، لأنـهـا تعـتـمـد على الألغاز المادية، والمغامرات المرسومة «Comic stripo» وحكايات العنف المصـورة، والخوارق غير المألوفة، تكاد لا تجد أسطورة عربية أو منظومة شعرية هادفة. أو قصة شرقية خيالية، كما أن المؤسسات التى تشرف على اصدار دوريات الأطفال تهتم فى وقتنا الحاضر بميكى ماوس ودونالد داك، وتوم وچيـرى، وسـوبرمـان، والرجل الأخـضـر، وتـان تان، ولاكى لوك، واستريكس، ودان كوبر وغيرها من الشـخصيات الغربية التى تغـزو خـيـال وعـقل الطفل المصـرى، أمـا نتـاج الرواد من رجـال البـيـداجـوجـيا ورواد الشـعـر أو القـصص المحـدثين واسـهـامـات المعاصرين للناشئين، فلم يلق معظم ذلك النتاج أو يجد طريقه لعقول الأطفـال ووجـدانهـم. إننا لا نغـفل دور التـرجـمـة الهـادفـة للطفل عن الثقافات الأجنبية، ولكننا بصدد ضرورة التصدى لغزو مضـامين لا تتفق والقيم العربية الاسلامية.

آدب الطفل العربى بين الواقع والطموح:

ربما استطعنا الوقوف على ملامح صورة أدب الطفل العربى من خلال عرضنا لنشأته وملامح تطوره، وهى ملامح متجددة، وليس معنى ذلك أن أدب الطفل العربى قد بلغ الكمال الفنى الذى نرجوه له، وإنما خطا خطوات واسعة وسديدة على طريق تأصيله كجنس أدبى، على نحو ما ألمحنا فى الصفحات السابقة. إن ثمة قضايا مطروحة على ساحة أدب الطفل العربى، أبرزها تثبيت وجوده وتأصيل مفاهيمه، وضرورة تغيير النظرة الأقل للطفل، ولأدب الطفل كذلك، ثم يلى ذلك إجراء البحوث العلمية حول اشكالية الكتابة الأدبية للطفل فى بنيتها ومضمونها الأمر الذى يصل بنا فى سلامة ويقظة إلى عقل الطفل ووجدانه لنبث المحتوى الذى نهدفه عبر المنهج المدرسى من ناحية، ومن خلال التذوق الحر للأنوا ع الأدبية من ناحية أخرى، وفى حقيقة الأمر فإن جهود الهيئات العالمية والقومية والوطنية، تضع فى برامجها المعاصرة العناية بالطفل العربى، من مثل جهود منظمة (اليونسكو) و(اليونسيف)، والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، والمجلس العربى للطفولة والتنمية، ومكتب التربية العربى لدول الخليج، والدوائر الثقافية الوطنية لثقافة الطفل بمعظم الدول العربية – وهى

تستهدف جميعا - إعادة بناء الإنسان العربى، لذلك بدأت بقاعدة ذلك البناء ألا وهو الطفل. ومما يثير الدهشة أنه وبعد مضى نحو قرن من الزمان على الدعوة التى أطلقها أحمد شوقى لإرساء دعائم جنس أدبى للطفل فإن أساسات الثقافية العربية لم تخطط لحاضر أو مستقبل هذا الجنس الأدبى المستحدث، إن تكريس الخدمات الثقافية العامة للكبار أفقد الطفل العربى القدرة على الإحساس الجمالى والاستثارة الوجدانية، وهذا لا يقلل من الأهمية الفائقة للمجالات التربوية، والصحية والنفسية، والرياضية، والوسائل الإعلامية بالنسبة للتشكيل الوجدانى والمعرفى للطفل، لكنه يجب الاحتفال بأهم وأخطر تلك الجوانب ألا وهو الأدب. لا جدال على الأدوار التى يمكن أن تلعبها مجلات الأطفال العربية فتصبح بمثابة مشاعل هداية تنير عقل الطفل وتستثير وجدانه، كذلك البرامج الهادفة «والممتعة» فى الإذاعة والتلفزة. إن الكبار - معظم الكبار من الراشدين - لا يفهمون «الثقافة» فى معانيها الشائكة المتعددة ومازلنا نقدم للأطفال نتاج هذا المفهوم المركب من النتاج المعرفى والتاريخى والعلمى والاعلامى على أنه ثقافة أطفال تارة، وأدب أطفال تارة أخرى، والذى يرى فى أدب الطفل ضربا من اللهو، ويعامله على أنه أدنى من الأدب المكتوب للكبار(٥٨).

إن ما أشار إليه الناقد آنفا يشكل صعوبة تعترض ازدهار أدب

الطفل العربى، شأنها شأن عدم وعى كتاب الطفولة بخصائص النمو الانفعالى اللغوى والنفسى للطفل. ربما جاءت قضية تأصيل مفهوم أدب الطفل(٥٩) أو معناه الاصطلاحى أولى القضايا التى عكف على حسمها كثير من الدارسين، وبخاصة فى السنوات العشر الأخيرة، يقول د. توفيق عزوز: «على الرغم من شيوع اصطلاح أدب الطفل، وقبول هذا الاصطلاح فى مجالات البحث العلمى وفى دور المعارف والمراجع الأساسية. إلا أنه لا يمكن أن نفصل هذا الأدب والأدب المتخصص والموجه للأطفال عما يسمى بالأدب العام أو أدب الكبار، فإن هذا الأدب العام يبقى مصدرا غنيا لمواد وكتابات تم اختيارها للأطفال، وأية دراسة لتاريخ الأدب تؤيد هذه الحقيقة، فكثير من الكتابات التى لم توضع أصلا للصغار، قد أقبل عليها الأطفال لأنها وجدت هوى فى نفوسهم، لأن هذه الكتابات استطاعت أن ترضى حاجاتهم ورغباتهم وعلى مختلف مناحى نموهم المختلفة(٦٠).

ويضيف الباحث الأردنى روكس بن زايد العزيزى رؤية عصرية لهذا اللون الأدبى، فيذكر: «ولا ترانا مبالغين إذا أسمينا القرن العشرين عصر المرأة والطفل كما هو عصر الذرة وريادة الفضاء، لأن الاهتمام بالطفل غير مفاهيم التربية.. بل غير مفاهيم الحياة كلها. وقد احتفى أدبنا بالطفل يوم اعتبر عالم الطفل عالما مقدسا، فاتخذ الأدباء من الطفل منطلقا لبث آرائهم السياسية والاجتماعية،

وجعلوا الطفل رمزا للشعوب المستعبدة والطامحة إلى الاستقلال، ثم اتخذوه رمزاً للحرية، ينشأ كما تنشأ. وينمو كما تنمو»[٦١].

إن مصطلح أدب الأطفال ذو دلالة مستحدثة، فلم يتبلور فى أدبنا العربى الحديث سواء من حيث «الكم» أو من حيث «الكيف» إلا فى العقدين الآخيرين، على الرغم من أن الإرهاصات الأولى لهذا اللون الأدبى تعود إلى بدايات القرن الحالى، إذ أن أدب الأطفال كفن متميز لم يجد طريقه إلى الأدب العربى قبل أحمد شوقى فى الشعر وكامل كيلانى فى القصة[٦٢] ثم بداية ظهور مجلات الطفل المتخصصة وتوفر بعض الأدباء للكتابة للطفل.

وقد اجتهد الأديب السورى عادل أبو شنب فى تحديد مفهوم أدب الأطفال فيذكر: «.. يتحدد مفهوم أدب الأطفال ضمن معايير نظرية الأجناس الأدبية، القصة والقصيدة والمسرحية وغيرها من الأنواع الأدبية، بمعنى آخر ضمن سمات وخصائص النص الأدبى، ووفق هذا التصور يتم الفصل بين ما يكتب للأطفال من معارف، وما يكتب لهم من أدب، فبين أن تكتب للأطفال وبين أن تنشىء أدباً للأطفال فارق شاسع..»[٦٣].

وإذا كانت اللغة بوصفها النسيج الذى يشكل قوام أى عمل أدبى، فإن كتاب الطفولة فى العالم بحاجة ضرورية إلى الوقوف عند نتائج البحوث اللغوية المعاصرة فيما يتعلق بالنمو اللغوى والقاموس

(المعجم) اللغوى للطفل، وعلم النفس اللغوى بحقائقة التى تدور حول الفهم والإدراك والذكاء والإكتساب والميل والتفكير وغيرها من الحقائق المتصلة بعالم الطفولة فى أطوارها المختلفة. إن اللغة فى أحد مفاهيمها مهارة مكتسبة، وفى ضوء ذلك فهذه المهارة بحاجة إلى تنمية مطردة، وإذا كان كتاب الطقولة مطالبين بمراعاة قدر حصيلة الطفل اللغوية، فإنهم مطالبون كذلك بالارتقاع بالطفل – وبالتدريج – إلى مستويات لغوية أكثر رقيا لأن المستويات اللغوية التى تخاطب عقل الطفل وادراكه يجب أن تراعى نمو الطفل العقلى والجسمى والنفسى. إن الأناشيد القصيرة المنغمة التى يرددها الأطفال فى (رياض الأطفال) تتسم بالبساطة اللغوية والإيجاز الدال، مع ثراء واضح فى الإيقاع الموسيقى، وتنأى أناشيد الأطفال وأغانيهم فى تلك المرحلة عن الخيال والجمل الطويلة وبعض المفردات الأكثر رقيا، وهى من السمات اللغوية والأسلوبية التى تتلاءم وأطفال مرحلتى الطفولة الوسطى والمتأخرة، فلكل عمل أدبى مفرداته وتراكيبه اللغوية الخاصة به، كما أن لكل طور من أطوار مرحلة الطفولة القاموس اللغوى الخاص به والتراكيب اللغوية الخاصة به كذلك، ولا نستطيع وصف اللغة التى استعملها كتاب الطفولة، بأنها لغة ملائمة للأطفال كى يفهمونها ويقدرونها بسبب الخطأ المركب الذى يقع فيه معظم الكتاب وهى السهولة المبالغة فى التقريرية أو الخطابية

المباشرة المقتربة من النثر، أو الصعوبة اللغوية بما تحمله اللغة من ألفاظ غير مستعملة أو غريبة، أو بناء الجملة المركبة، ونعد ذلك من تعقيد الاستعمال اللغوى من ناحية وتضمين الرمز المبالغ من ناحية ثانية. لقد نجح بعض الكتاب - وهم قلة من المبدعين - فى عدم الوقوع أسرى تحت مظلة السهولة أو الصعوبة التى أشرنا إليها نذكر منهم على سبيل المثال الشعراء العرب: فاروق سلوم (العراق) على الشرقاوى[٦٤] (البحرين) أحمد زرزور، أحمد سويلم(مصر)، سليمان العيسى وخليل خورى (سوريا) يوسف العظم (الأردن) محمد منذر (الكويت) وغيرهم.

كما نجح رواد الأدب القصصى فى الإفلات من مشكلة التيسير اللغوى أو تعقيده، نذكر من المعاصرين: عبد التواب يوسف الأديب المصرى - رائد أدب الأطفال المعاصر - بمؤلفاته المتنوعة وبحوثه الجادة، أيضا روضة الهدهد ومحمود شقير (الأردن) زكريا تامر (سوريا) محمد عدنان غنام (الكويت). وفى الشعر والمسرح الشعرى الغنائى للطفل يتصدر هذ اللون الأدبى المستحدث سليمان العيسى وأحمد سويلم وحسيب كيالى وأحمد زرزور ومحم السنهوتى وحسين على محمد وعبد العليم القبانى ويس الفيل وغيرهم. وما زالت الآمال معقودة علي كوكبة أخرى من المبدعين والدارسين لإرساء الخصائص اللغوية والنقدية لأدب الطفل العربى، بمزيد من النتاج الإبداعى

والبحثى حول الطفولة، والإفادة من المؤتمرات العلميـة[٦٥] العربية المنعقدة حول الطفولة، وبخاصة المؤتمرات التى تتناول بالدرس والتحليل أدب الطفل العربي، وليس من شك أن نتائج مثل هذه الحلقات البحثية تضيف إلى أدب الطفل من المكاسب مما يعدل ازدهار حركة التأليف الأدبى للطفل، وإن أول خطوة جادة قطعها أدب الطفل – ونحن نتبع أصوله – هو إمكانية التمييز بين التربية والآداب من خلال الفصل بينهما فيما يتعلق بأدب الطفل، وهذا الفصل لا يعنى التعارض بينهما وإنما تكتسب التربية الإبداع الأدبى للطفل كمثير وجدانى فى العملية التعليمية، فلم تعد السيادة للمحفوظات المدرسية الجامدة أوالأناشيد الخطابية الفجة، بل ألفينا أنفاساً من روح شعر الطفولة تسرى فى أوصال الكتب المدرسية الأدبية جنبا إلي جنب مع حكايات الأطفال وأقاصيصهم، أى أن أدب الطفل اكتسب مفهومه النظرى والتطبيقى.

لكن المثير للدهشة – بعد الخطوات الواعية التى قطعناها – أن تقوم الباحثية الأردنية هيفاء شرايحة بتعميم مفهوم أدب الأطفال قائلة: «أدب الطفولة لا يعنى مجرد القصة أو القصيدة، وإنما يشمل المعارف الإنسانية،، إن كل ما يكتب للأطفال سواء أكان قصصا أم مادة علمية، أم تمثيليات فى كتب أو مجلات نعنى بها أدب الأطفال»[٦٦] .

ويطرح د. عبد العزيز المقالح رؤيته حول صورة أدب الطفل فى الأدب العربى القديم فيذكر «... فيما عدا المواقف التى كان فيها الطفل «موضوعا» لا طرفاً للأخذ والعطاء، فإن أدبنا العربى القديم قد خلا من أدب الطفولة، باستثناء تلك الأغانى الموسومة بأغانى المهد: أغانى ترقيص الأطفال، وهى أدب تنغيمى، قد يهم الموسيقيين ودارسى الألحان الفلكلورية أكثر - ربما - مما يهم الدارسين من الأدباء»(٦٧) ومع ذلك ففى أدبنا العربى القديم المقطوعات الشعرية والحكايات القصصية التى تتوجه للطفل، بل كان فيها الطفل طرفا، ألفيناه شاعراً تارة، ويرقص ويطرب على إيقاع الأغانى الشعرية القصيرة تارة أخرى، مثلما كان الطفل «موضعا» فى صلب الحكاية أو الأرجوزة وهذا ما حاول الكتاب تأصيله بين يدى القراء.

ربما كانت قضية (المضمون) فى أدب الطفل العربى هى المحور الذى ينطلق منه توجهتنا لتمهيد الطريق الصحيحة أمام الأجيال الناشئة، ونحن نؤمن بأن الأطفال العرب لا يخضعون فى معظم الأحوال لتربية متكاملة ومتوازنة، فهم يعانون من الجمود والحشو وكثرة التعديل فى المنهج المدرسى، وإهمال جسيم فى التربية الوجدانية، مع قصور وتباين فى أساليب التثقيف الذاتى والخارجى، واستمرار عزوف كبار الأدباء عن الكتابة الأدبية للطفل، كما أن صورة القيم المتباينة، وصورة القدوة متغيرة غامضة وبالتالى فإن

القـاعـدة التى ينطلق منهـا أدب الطفل يجب ارتكازها على أسس راسخة واضحة، فمن المعروف أن مضمون الأدب هو العمود الفقرى الذى يبعث فيه الحركة والحياة، ويجب أن يسير فى خط مواز مع (الشكل) المعبر عنه باللغة والقواعد والأساليب. ليس هناك شك فى أن هدف كاتب أدبيات الأطفال تقديم منظومة متكاملة من «القيم» غير أن هناك اختلافا قيميا فى العالم كله، فبعض القيم الأجنبية صالح للأطفال العرب، وبعضها الآخر غير صالح، إضافة إلى أن القيم نابعة من توجهات المجتمع والسياسة العامة فيه، ولهذا السبب نرى بعض الاختلاف بين الدول العربية فى القيم المطروحة على أطفال كل قطر على حدة، وإن لم يكن هذا الاختلاف كبيرا، وعلى أية حال فقد استند العرب إلى تصنيف «وايت» Waitt للقيم وأدخلوا عليه بعض التعديلات ليتلاءم والوضع العربى[٦٨]. إن ترسيخ القيم[٦٩] الإيجابية المنشودة فى وجدان الطفل العربى من أهم سمات المضمون الجيد، ويجب على كتاب الطفولة أن يعمقوا تلك القيم فى عقول الأطفال وقلوبهم، بأسلوب فنى يتلاءم وإدراكهم. إن الغزوة الأجنبية ومخاطرها الوافدة بمثابة خطر داهم تهدد أجيالنا، كما أن الثقافة الغازية تلاحق أبناءنا فى أعقار بيوتهم بواسطة سلبيات الدوريات المترجمة التى لا تساعد إلا على تكوين شخصية مزورة فى الطفل العربى[٧٠].

أما قضية الرمز فى أدب الأطفال، فستظل ملازمة لهذا اللون الأدبى شريطة أن يكون الرمز فى الحكاية أو المنظومة الشعرية من السهولة بحيث يمكن التقاطه بسرعة، لأن اتباع الرمز فى النص الأدبى الموجه للطفل يحفز خياله بشكل صحيح، فلا يمكننا أن نمحو الرمز فى الأدب باعتبار ما يومىء إليه من ناحية وقدرته على تنمية خيال الناشئة من ناحية أخرى. الصعوبة الوحيدة فى قضية الرمز فى أدب الأطفال، هى مبالغة الكتاب فى استعماله بحيث يستغلق على الأفهام، والطفولة حين تكون امتداداً للذات لا تقترن بالحاضر فقط، ولكنها تمثل الماضى بنفس القوة التى تمثل فيها المستقبل، فالكبار كانوا صغارا والصغار سيغدون كباراً وما يلحق بهذا أن يتحول الماضى والمستقبل إلى ملجأ أو مخبأ يهرب إليه المرء فتكون الطفولة – الرمز – زجاجة شفافة لا لذاتها، إنما توجد باعتبار ما تومىء إليه(٧١).

وفى النهاية يمكننا القول بأن أدب الطفل العربى ما زال ينمو – عقب ولادته الصحية اليافعة – كجنس أدبى يندرج تحت مظلة الأدب العام، ومن ثم بقى على المبدعين والباحثين تكريس مؤلفاتهم ودراساتهم فى إطار هذا اللون الأدبى المستحدث، كما يجب أن يحرص رجال التربية على التوسع فى استثارة ميول الطفل الوجدانية فوق خارطة المنهج المدرسى، ولو تطلب الأمر الحذف

والتعديل اللازمين. إن الاختيار والتقعيد النظرى الممزوج بالنتاج التطبيقى السديد للنصوص الأدبية للطفل هو حجر الزاوية فى هذا المجال.

إن الطفولة تعنى المستقبل، وواجبنا بناء طفولة سليمة الجسد والروح، صحيحة الأخلاق، قد لقنت شيم الرجولة وخصال الفتوة وبهجة الحياة، ومعرفة الحاضر، والاستعداد لمواجهة المستقبل، وأدبنا العربى أحد وسائلنا إلى تلك الغايات، ولن يتم الازدهار المأمول لأدب الطفل العربى إلا بمزيد من الدراسات الأسلوبية والدلالية فى حقل أدبيات الطفولة فضلا عن الدراسات الأدبية المقارنة مع الآداب العالمية فى هذا المجال.

هوامش الفصل الثالث

(١) طبع الكتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» لرفاعة الطهطاوى عام١٨٧٥م وكانت مجلة روضة المدارس قبل ظهور طبعته الأولى عام ١٨٧٥م تنشره فصولا.

(٢) تاريخ التعليم فى مصر، د. أحمد زكى عبد الكريم، ص١٧٢،ط النهضة المصرية. ١٩٤٨م.

(٣) المرشد الأمين للبنات والبنين، رفاعة رافع الطهطاوى، خطبة الكتاب (المقدمة)، مطبعة المدارس الملكية، ١٢٨٩هـ.

(٤) العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ، تحقيق عامر بحيرى، المقدمة طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨.

(٥) أتم محمد عثمان جلال تعريب حكايات لافونتين لعهد الخديوى عباس باشا الأول (٤٩ –١٨٥٤) وطبع الديوان فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى (ط مدرسية)، وقد عثر المؤلف على الطبع الأولى المجهولة – غير الموجودة بدار الكتب – قيد التحقيق بحوزته.

(٦) فى أدب الأطفال، د. على الحديدى، ص ٢٤٥.

(٧) أطفالنا فى عيون الشعراء، أحمد سويلم،١٥٢.

(٨) ديوان الشوقيات، المقدمة، ط-١ مطبعة الأداب ١٨٩٨م.

(٩) نفس المرجع

(١٠) فى النقد المسرحى، د. محمد غنيمى هلال، ص ٩٤، ط بيروت ١٩٧٥م.

(١١) أنظر: منتجات من شعر شوقى فى الحيوان، ط/ المكتبة التجارية القاهرة ١٩٤٩م.

(١٢) تنوعت موضوعات نظم الجمان من مثل: صبى كذوب، حطاب الموت، زنجى وغيرها، فضلا عن حكايات الحيوان: الثور، الثعلب، الذئب، الحداد وكلبه،

امرأة ودجاجة، ولم تخل حكاياته المنظومات جميعا عن إيراد مثل مأثور ينهي به الشاعر منظومته.

(١٣) مسامرات البنات، على فكرى، مطبعة اللواء. ١٩٠٣م

(١٤) النصح المبين فى محفوظات البنين، على فكرى مطبعة مجلة الشباب، ١٩١٦م.

(١٥) آداب العرب، ابراهيم بك العرب، ص١١١، ط١ المطبعة الأميرية بمصر ١٩١١م.

(١٦) عنون المؤلف كل منظوماته بلفظه: العظة الأولى، العظة الثانية، وهكذا إلى العظة التاسعة والتسعين ثم يشير إلى الحكاية باسمها كالطاووس والنحلة، والكلب والهر، تهذيب الأسد وغيرها.

(١٧) سمير الأطفال، محمد الهراوى، ط دار الكتب المصرية، ١٣٤٠ هـ ١٩٢٢م.

(١٨) انظر حياة الشاعر وأدبه فى كتابنا «رواد أدب الطفولة دراسة تحليلية» – قيد الطبع.

(١٩) أدب الأطفال بين الهراوى وكامل الكيلانى، مقالة الدكتور زكى مبارك، صحيفة البلاغ، عدد٨/٩/١٩٣١، وأدبيات الطفل، مقالة لساطع الحصرى، مجلة التربية، عدد يناير، بغداد، ١٩٣٠، كامل كيلانى والتأليف للطفل، مقالة للدكتور أسعد حكيم، مجلة المجمع العلمى العربى. ٤ اكتوبر ١٩٣٢ دمشق، وتتابعت المقالات حول الطفل وأدبه فى الدوريات العربية بعامة، والمصرية بخاصة، لمزيد من التفاصيل حول استخدام مفهوم أدب الطفل بمعناه ودلالته أنظر: الهلال: أول مايو ١٩٣٣، البلاغ: ١٣و ٢٥/ ٨/ ١٩٢٣. الحال: ٨/٨، ١٩٣٤/٩/٦ م. الأهرام ١٩٣٤/٩/١٦م وغيرها.

(٢٠) أنظر كامل الكيلانى فى مرآة التاريخ لمجموعة من المؤلفين، ط المكتبة الكيلانية، القاهرة ١٩٦٢م.

(٢١) نشر الرصافى أول منظومة للطفل بعنوان «تنويمة الأم لطفلها» فى مجلة المرأة الجديدة عام ١٩٢٣، وتوالت منظوماته فى المجلات المدرسية، ومجلة

التربية والتعليم والفتوة وغيرها من المجلات للأطفال، وجمعت في كتاب نشره في الأربعينات (د.ت) في طبعته الأولى (تمائم التربية والتعليم) بمقدمة ليوسف يعقوب سكوفي، ومن بين هذه المنظومات الشعرية: انشودة العرب، الله، الوطن، الأم وابنها الصغير، الثعلب والغراب، اغرودة العندليب، البلبل والورد، الدب والذئب، الهرم وغيرها.

(٢٢) ظهر في تلك الفترة لمحمود أبي الوفا منظومات وأناشيد جمعت في ديوان للأطفال وفي أعماله الشعرية الكاملة.

(٢٣) See : Lutfi, Mohamed: Changes needed in Egyotian School Raders to increas their value medie of instruction, chicago, 1984.

(٢٤) انظر: عدد من مجلة التربية الحديثة (مصر) يناير ١٩٣٨م. ع٩ مجلة الثقافة يوليو ١٩٣٩م، يونية ١٩٤٩م المعلم العربي (سوريا) ع ١٩٥٧:٣٢١ م وتوالت بعد ذلك المقالات في الأديب البيروتية، الهلال القاهرية، العربي الكويتية، الدوحة، الفيصل السعودية وغيرها من الدوريات العامة والمتخصصة.

(٢٥) أنظر: التربية المكتبية: أحمد نجيب ومدحت كاظم، دار غريب ١٩٧٤ (الأطفال يقرأون) هدى برادة (بالاشتراك) هيئة الكتاب ١٩٧٤، والخدمة المكتبية العامة للأطفال، سهير محفوظ، آداب القاهرة ١٩٧٥م.

(٢٦) القصة في التربية، أصولها النفسية، تطورها، مادتها، طريقة سردها، د. عبد العزيز عبد المجيد. ط١ دار المعارف ١٩٥٦م.

(٢٧) فن الكتابة للأطفال، أحمد نجيب، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨م.

(٢٨) عمق المؤلف بالتأصيل والتحليل هذا الموضوع في أطروحته للدكتوراه.

(٢٩) أدب الأطفال، فلسفته، وسائطه، هادي نعمان الهيتي، بغداد ١٩٧٧م.

(٣٠) تناولد. هادي نعمان الهيتي في كتابه المشار إليه شعر الطفولة فوق صفحات من ٢٠٧ إلى ٢١٦ من جملة صفحات الكتاب التي بلغت زهاء ٤٤٣

وهو قدر ضئيل جدا بالقياس إلى إجمالي صفحات الكتاب من ناحية وإلى عنوانه الأدبي من ناحية أخرى، وقد أسهمت د. هدى قناوى بكتابين هما (أدب الأطفال، ووسائط الأطفال) وهما إضافة لحقل أدبيات الطفل ووسائطه مستعنية بخبرة ميدان علم نفس النمو والتذوق الأدبى الجمالى.

(٣١) انظر: ثقافة الأطفال، د. هادى نعمان الهيتى، ع ١٢٣ سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٨٨م.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل: أنظر رسالة دكتوراه للمؤلف مخطوطة تحت عنوان: (شعر الطفولة فى الأدب المصرى الحديث قضاياه واتجاهات رواده.. آداب بنها ١٩٨٦م) قيد الطبع.. وقد ألحق بها دراسة تاريخية لأدب الطفل الحديث فى الأدبين العربى والأجنبى.

(٣٣) مجلة روضة المدارس، دراسة تحليلية، محمد عبد الغنى حسن د. عبد العزيز دسوقى، ص ٦٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

(٣٤) المرجع السابق، ص٧٨.

(٣٥) العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ، محمد عثمان جلال، تحقيق عامر البحيرى، المقدمة ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م.

(٣٦) أنظر: الدراسة التحليلية حول «العيون اليواقظ» تحقيق ونقد (الباب الثالث – رسالة دكتوراه، آداب بنها، للمؤلف، مصدر سابق)

(٣٧) مجلة روضة المدارس، دراسة تحليلية محمد عبد الغنى حسن د. محمد عبد العزيز الدسوقى، ص ٨٩ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

(٣٨) مجلة روضة المدارس، دراسة تحليلية، محمد عبد الغنى حسن (بالاشتراك) ص٨٠.

(٣٩) المرشد الأمين، رفاعة الطهطاوى، طبعة مطبعة المدارس الملكية ١٨٧٥م. (الشافهى، هكذافى الأصل).

(٤٠) نهضة مصر. د. أنور عبد الملك، ص١٨٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

(٤١) روضة المدارس، السنة السادسة، العدد ١٤، ص٨.

(٤٢) المرجع السابق، السنة الثانية، العدد ١٢، ص١٦.

(٤٣) روضة المدارس المصرية السنة الأولى شعر اسماعيل عاصم، ع١٠، ص١٩.

(٤٤) مجلة روضة المدارس، الافتتاحية، على رفاعة الطهطاوى، ع١، ابريل ١٨٨٧ مطبعة وادى النيل.

(٤٥) تاريخ التعليم فى عهد محمد على د.أحمد عزت عبد الكريم، ص١٧٤ ط القاهرة ١٩٣٨م.

(٤٦) مجلة روضة المدارس، العدد الأول (شعار) وضع تحت عنوان المجلة.

(٤٧) المدارس الابتدائية.

(٤٨) انظر تاريخ التعليم د. أحمد عزت عبد الكريم ص ١٧٣ – ١٨.

(٤٩) «الشوقيات» أحمد شوقى، المقدمة، الطبعة الأولى ١٨٩٨م.

(٥٠) مسامرات البنات، على فكرى، ط١١، ١٩٠٣م.

(٥١) آداب العرب، ابراهيم العرب، خطبة المقدمة.

(٥٢) النصح المبين فى محفوظات البنين، على فكرى، طبع مطبعة الشباب ١٩١٦.

(٥٣) مثل (آداب الفتى)، (آداب الفتاة)، (تربية البنين) (تربية البنات) (التربية الاسلامية) وغيرها.

(٥٤) انظر الباب الأخير من دكتوراه مخطوطه للمؤلف، مصدر سابق.

(٥٥) أنظر: الباب الأخير مندكتوراه، مخ، للمؤلف، مصدر سابق.

(٥٦) صحيفة الحال، مقال عنوانه «أدب الأطفال لمحمد مصطفى الماحى» ع ٨/ ٨/ ١٩٣٤م.

(٥٧) كامل الكيلانى فى مرآة التاريخ، لمجموعة من الكتاب، مقال عنوانه: استجاب لحاجات عصره، خليل مطران، ص٣٩٣.

(٥٨) مجلة الشئون العربية، ملف: أدب الطفل، سمر روحى القيصل، ص٢١٩،

ط جامعة الدول العربية تونس ١٩٨٥م.

(٥٩) من أهداف البحث الرئيسية تعميق وتأصيل هذا المفهوم في الأدبين القديم والجديد

(٦٠) جريدة الرأى الأردنية، مقال فى أدب الطفل للدكتور توفيق عزوز، ع ١٩٧٩/٤/٢م.

(٦١) الطفل فى الأدب العربى، روكس العزيزى، ص٧٧٧ -٨٠٣. بحث لمؤتمر الأدباء العرب العاشر، ط وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر ١٩٧٥م.

(٦٢) مجلة شئون عربية، مقال: اشكالية الكتابة للأطفال، أحمد المصلح، ص٢٢٠ - ٢٣١.

(٦٣) أدب الأطفال فى سوريا، بحيث مقدم لمؤتمر الأدباء العاشر، عادل أبو شنب، جـ١ ص٥٩٤. ٥٩٥.

(٦٤) شاعر بحرينى معاصر، متعدد المواهب أصدر للأطفال ديوانه الموسوم: أغانى العصافير، واتبعه جـ١ أغانى العصافير، واتبعه برصيفه شجرة الأطفال، طبع بعناية وزارة الاعلام البحرينية وأهم ما يميز شعره للأطفال احتفاله بالإيقاع الصوتى المنغم..

(٦٥) انظر لمزيد من التفاصيل: لبحوث مؤتمر ثقافة الطفل، مركز التوثيق التربوى، القاهرة١٩٧٠، بحوث مؤتمر الأدباء العرب العاشر «الجزائر» ط وزارة الثقافة ١٩٧٥م. الحلقة الدراسية حول مسرح الطفل، ط هيئة الكتاب القاهرة ١٩٧٩، لغة الكتابة للطفل، ط هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨١. كتب الأطفال فى الدول العربية والنامية، ط هيئة الكتاب ١٩٨٣م. الثقافة العلمية فى كتب الأطفال، ط هيئة الكتاب ١٩٨٤.. أدب الأطفال فى مواجهة الصهيونية، ط الجامعة الأردنية عام ١٩٨٥ م. أدب الأطفال فى مواجهة الصهيونية (المؤتمر الثانى) ط الجامعة الأردنية، عمان ١٩٨٦، أدب الأطفال فى دول الخليج العربية (البحرين بالتعاون مع اليونسكو) ١٩٨٥ ط الرياض ١٩٨٧، أدب الأطفال، لمن نكتب وكيف؟ ندوة عربية موسعة نظمتها مجلة

شئون عربية، ط جامعة الدول العربية، تونس ١٩٨٥ م. الندوة الدولية لكتاب الطفل، ط. هيئة الكتاب، ١٩٨٧م. أطفالنا والتراث، ندوة عربية، ط المجلس الأعلى للثقافة مصر ١٩٨٨. المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى، ط مركز الدراسات الطفولة، جامعة عين شمس ١٩٨٨ م. وغيرها.

(٦٦) أدب الأطفال ومكتباتهم، هيفاء شرايحه، ص٩، ط عمان ١٩٧٨.

(٦٧) الطفل فى الأدب العربى، بحث مقدم لمؤتمر الأدباء العرب العاشر، د. عبد العزيز المقالح، جـ١ ص ٦٩١ - ٦٩٢ط وزارة الثقافة والاعلام، الجزائر، ١٩٧٥.

(٦٨) مجلة شئون عربية، ملف أدب الطفل سمر روحى الفيصل، ص ٢٢٣ ط جامعة الدول العربية وتونس ١٩٨٥م.

(٦٩) مازال دراسات تحليل المضمون فى أدب الطفل العربي قليلة للغاية بالقياس مع الدراسات التاريخية والعامة والببليوجرافية فأبرز دراسات تحليل المضمون هى التى قدمها سمر روحى الفيصل (مشكلة القيم فى قصص الأطفال السورية) وخلف الهيثى (القيم السائدة فى صحافة الأطفال العراقية) وكافية رمضان (تقويم قصص الأطفال فى الكويت) د. سعد ظلام (الحكاية على لسان الحيوان فى شعر شوقى) وأهم ما تطرحه نتائج دراسات تحليل المضمون هو الوقوف على القيم، كالقيم: الأخلاقية، الوطنية، والترويحية، والاجتماعية والمعرفية، وقيم تكامل الشخصية وغيرها.

(٧٠) جريدة الرأى الأردنية، ثقافة الأطفال، د. صالح الخرفى، ع٧ ديسمبر ١٩٧٩م.

(٧١) الطفولة فى الشعر العراقى الحديث، بحث مقدم لمؤتمر الأدباء العرب العاشر، عبد الجبار البصرى جـ١. ص٦٢٩، ط وزارة الثقافة والاعلام، الجزائر ١٩٧٥م.

المحتويات

صدر من هذه السلسلة

١- علم السياسة .... د. علي الدين هلال

٢- الإعلام والاتصال الجماهيرى .... د. سمير حسين

٣-جوهر الإيمان فى الأسلام .... جابر حمزة فرج

٤-.الأدب وفنونه .... د. محمد عنانى

٥- الأدب الشعبى وفنونه .... د. أحمد مرسى

٦- علم الاجتماع .... د. محمود الجوهرى

٧-الفنون التشكيلية .... صبحى الشارونى

٨- الموسيقى والإنسان .... فرج العنترى

٩- [الوجود خارج الذات] .... سعيد منصور

١٠- الفيلم السينمائى .... على أبو شادى

١١- المسرح والتراث العربى .... د. سمير سرحان

١٢- الثقافة الجماهيرية ... الواقع والمستقبل .... محمود سعيد

١٣-عن الشعر والشعراء .... فتحى سعيد

١٤-الطب الشرعى فى خدمة العلم .....د. صلاح الدين مكارم/د.محمد محمدى العراقى

١٥- علم الإنسان ....فوزية رمضان أيوب

١٦- التنمية الثقافة والثقافة الجماهيرية .... فؤادة البكرى

١٧- البحر عدوا وصديقا .... صلاح عبدالغنى

١٨- دفاعا عن التنوير ط١ .... د . جابر عصفور

١٩- دفاعا عن التنوير ط٢ .... د . جابر عصفور

٢٠- شخصية الطفل وثقافته .... السيد المخزنجى

٢١- الفكاهة التلفيزيونية وجمهور الأطفال .... د. سامية أحمد على

٢٢- فن الدراما التليفزيونية .... محمد الشربينى

٢٣- السيد من حقل السبانخ .... صبرى موسى

٤٨ خفايا حصار السويس .... حسين العشى

٤٩ – القصة في القرآن .... محمد قطب

٥٠ – الوحى والدين والاسلام .... مصطفى عبد الرازق

٥١ – الهندسة الوراثية .... د. عبد الباسط الجمل

٥٢ – القصة القصيرة جدا .... أحمد عبد الرازق أبو العلا

٥٣ – الأداء السياسي فى مسرح الستينيات....... عبد الغنى داود

٥٤ – الخطاب الأدبى والطفولة .... د. أحمد زلط

رقم الايداع : ٩٧/٥٣٥٧

الترقيم الدولى : .I.S.B.N

977-235-813-1

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦

هذا الكتاب

إن عقل الطفل وإدراكه بحاجة إلى مختلف الأجناس الأدبية على تنوع مادتها وثراء خيالها وسحر تأثيرها واختلاف أساليب تشكيلها الفنى ومثل هذه الحكايات المتنوعة فى الأدب القصصى تغذى جوانب تفكير الأطفال وتقوى نواحى الخيال عندهم ووسيلة من وسائل التعليم والتثقيف والمشاركة فى الخبرة، وطريقا لتكوين العواطف السليمة، والوطنية الصادقة للأطفال، وأسلوبا يقفون به على حقيقة العقيدة ويكتشفون مواطن الصواب والخطأ فى المجتمع، ويتعرفون طرق الخير والشر فى الحياة.

شركة الأمل للطباع

الثمن جنيه